حَاشِيَة الإِسرَافِيلِي عَلَى القَوَاعِد الأَربَع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤١هـ

القَواعِدُ الأَربَع

للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي

(المتوفى: ١٢٠٦هـ)

ومعه

حَاشِيةُ الإسْرَافِيلِيّ عَلَى القَوَاعِدِ الأربَع

تأليف أَبي مَشْكُور الإِسْرافِيلي

عَبدِ الشَّكُور بن عَلِيّ بن عَبد الله الصَّومَالي

في دارِ الحَدِيثِ السَّلَفِيَّةِ بِالحَامِي

المقَدّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أما بعد:

فهذه حاشية مختصرة عَلى رِسَالةِ (القَواعِد الأَربَع) لشيخ الإسلام الإمام محمَّد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، كتبتها لنفسي، ثمَّ طلب منِّي بَعْضُ أَصْدِقَائِي الْفُضَلَاءُ أن أخرّجها، لعلَّ الله أن يَنفَع بذلك الإسلام والمسلمين، فَأَجَبْتهمْ إِلَى ذَلِكَ قَاصِدًا بِهِ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ، وَلِتكُونَ ذَخِيرَةً لِي يَوْمَ الْمَآبِ، وَإِنْ كُنْت لَسْت أَهْلًا لمثل هذا العمل، ولكن نرجو من الله أن يبارك في هذا القليل، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.



تَعرِيفُ الكِتَاب

إنَّ رسالة شيخ الإسلام النجدي المسمَّاة: بـ(القواعد الأربع) هي رسالة مع صغر حجمها عظيمة النَّفع، جليلة الفائدة، وذلك لأنَّ شيخ الإسلام النجدي ذكر فيها قواعد مهمَّة في الفرق بين دين المسلمين ودين المشركين، فمن فهمها فقد فهم التَّوحيد، بل استطاع بعد ذلك الردّ على كثير من شبه القبوريِّين، ومن تأمَّل فيها يجد ذلك بوضوح.

مَعنى عنوان الكتاب (القواعد الأربع)

القواعد جمع قاعدة، وهي في اللغة الأصل والأساس، ومنه قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [سورة البقرة:١٢٧]، وقوله تعالى:

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [سورة النحل:٢٦].

واصطلاحا: هو الأمر الكلِّي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة، تفهم أحكامها منها.(١)

وللقَواعِدِ أهمية عظيمة، وفوائد جسيمة، إذ بها تضبط الأمور الْمُتَفرِّقة، التي تدخل فِي الْقَوَانِينِ الكلِّية، فينبغي لمن "أَرَادَ إحكام علم، أَن يضْبط قَوَاعِده ليرد

---

(١) انظر الأشباه والنظائر لابن نجيم، وشرحها للحموي (ص/ ٢٢)، والوجيز في شرح القواعد الفقهية (ص/ ٩).

إِلَيْهَا مَا ينتشر من الْفُرُوع، ثمَّ يُؤَكد ذَلِك بالاستكثار من حفظ الْفُرُوع ليرسخ فِي الذِّهْن؛ فيتميز على نظرائه بِحِفْظ ذَلِك واستحضاره". [١]

ولا شكَّ ولا ريب أن معرفة هذه القواعد أهم من معرفة قواعد الأصول والفقه، وتسمية هذه بالقواعد أولى من تسمية تلك بها، يقول عبد الرحمن بن حسن: "وكذلك القواعد، فإن كل مسألة ينبني عليها مسائل، يسميها العلماء قاعدة، وقد صنَّف العلماء كتبا كبارا، وسموها بالقواعد؛ فمنها ما هو في أصول الفقه، كالقواعد لابن عبد السلام الشافعي، وابن اللحام الحنبلي، ومنها ما هو في الفقه، كالقواعد لابن رجب، وهو كتاب ضخم كبير الحجم. وهذه القواعد التي وضعها شيخنا رحمه الله، أحق بهذا الاسم من غيرها، لما ينبني عليها من أصول الدين؛ فإن معرفة توحيد الربوبية، من توحيد الإلهية، لا يسع أحدا جهله."[٢]

والأربع هو العدد الذي يكون بين الثلاثة والخمسة.

موضوع القواعد الأربع

مضمون هذه القواعد الأربع التي ذكرها الشيخ رحمه الله: معرفة التوحيد ومعرفة الشرك،[٣] والتفريق بين دين المشركين ودين المسلمين، وقد بيَّن المصنِّف رحمه الله تعالى موضوع هذا القواعد بقوله: "فهذه أربع قواعد ذكرها

---

(١) مقتبس من التحبير شرح التحرير للمرداوي (٨/ ٣٨٣٧).

(٢) انظر الدّرر السنية (١١/ ٣٦٦).

(٣) شرح القواعد الأربع للعلامة الفوزان (ص/ ٧).

الله في محكم كتابه، يعرف بها الرجل شهادة أن لا إله إلا الله، ويميز بها بين المسلمين والمشركين، فتدبرها، يرحمك الله، وأصغ إليها فهمك، فإنها عظيمة النفع". [١]

مجمل القواعد التي ذكرها المصنِّف

من تأمَّل في هذا الكتاب يجد أنَّ المصنِّف لا يصرِّح القاعدة كلّ التصريح، وإنما يذكر المصنِّف تعليلها، لأنَّ القاعدة أمر كلي يحكم عليه، حتى تستنبط أحكام الجزئيات، والمصنِّف لا ينص الحكم، ولكن يشير إليه إشارة لطيفة، فمثلا في القاعدة الأولى قال: "إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون أن الله هو الخالق، الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام." وليست هي كما ترى جارية على سياق القواعد، وإنما تعليل للقاعدة، وذلك أن القاعدة هي: مجرد الإقرار بالربوبيَّة لا يُدخل المرء في الإسلام، متكونة من أمر كلي مع حكمه، فكأنه قيل له: ولم ذاك؟ فيقول: لأن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون أن الله هو الخالق، الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، فلو كان الناس يدخلون في الإسلام بهذا لكان كفار قريش مسلمين، ولما قاتلهم النبي ﷺ،

---

(١) انظر الدرر السنية (٢/ ٢٧).

وبهذا يظهر لي أن المصنف كتب هذه القواعد أكثر من مناسبة، وهو سبب اختلاف النسخ، كما ذكره الدكتور صالح العبود في عقيدة محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

وأكثر الشرَّاح لم ينتبهوا لذلك، ولذلك لم يفهم كثير من المبتدئين هذا الكتاب، ولكن لو عبِّر لهم القاعدة أولا، ثم يذكر تعليلها من كلام المصنف لفهموا، وها أنا ذا ألخص هذه القواعد على أسلوب سهل [١] فأقول:

القاعدة الأولى: مجرَّد الإقرار بالربوبيَّة لا يدخل المرء في الإسلام، وبها يتبيَّن معنى (لا إله إلا الله).

القاعدة الثَّانية: عبادة المشركين لآلهتهم كانت من قبيل الوساطة والشَّفاعة، فهي تبين كيف كان شرك الأوَّلين.

القاعدة الثَّالثة: لَا فَرقَ بَينَ المَخلُوقَات فِي عَدمِ استِحقَاقِ العِبَادَة، فهي تبين أن من أشرك مع الله أحدا أنه مشرك، وأن الشرك لا ينحصر في عبادة الأصنام.

القاعدة الرَّابعة: شرك المتأخِّرين أغلظ من شرك المتقدّمين، فهي تبيِّن أن المشركين المتأخرين استحقوا إطلاق لفظ الشرك عليهم أشد من استحقاق المتقدمين.

منظومة في القواعد الأربع

وقد نظم هذه القواعد أخونا الفاضل أبو بكر عبد الرَّزاق الرَّازحي، فقال:

لا يسلم المقِرُّ بالربوبيَّةْ ... حتى يحقق أيضا الألوهيَّةْ
والمشركون أشركوا أرادوا ... شفاعة وساطة فحادوا
لا فرق بين الخلق في العبادهْ ... فكلها لربِّنا مراده

---

(١) مستفيدا من العلامة الجامي الذي تفطن لذلك، وهكذا الشيخ صالح آل الشيخ رحمه الله تعالى، وبعض الشراح، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ومن تأخر مشركًا فأغلظْ بشركه ممن مضى فيحفظْ

من أين أخذ المصنِّف هذه القواعد؟

قال العلامة صالح آل الشَّيخ في شرح القواعد الأربع (ص/ ١٢): "وهذه القواعد الأربع مأخوذ من نصوص الكتاب والسنَّة، ومن معرفة حال العرب، فهي قواعد عظيمة، تعصم من حفظها، وعلم معناها من أن يكون عنده تردد في مسألة الحكم على أهل الإشراك، وعلى وجوب إخلاص الدين لله جلَّ وعلا، وكيف يكون ذلك؟".

حكم من أنكر مضمون هذه القواعد

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن: "فمن أنكر هذه القواعد التي وضعها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدَّس الله روحه، فقد كفر بما تضمنته من أدلة أصول الدين، التي تضمنتها آيات القرآن المحكمات وصحيح الأحاديث؛ وذلك هو الدين القيم، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾ [سورة الروم: ٣٠-٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)﴾ [سورة البينة: ٥].

وبهذا البيان يعلم المنصف أنه لا ينكر تلك القواعد إلا من أقعده جهله، وعميت بصيرته، وضل فهمه، وتغيرت فطرته، وضاع عقله نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله معرفة الحق وقبوله، ومحبته والعمل به والثبات عليه، والاستقامة في الدنيا والآخرة؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ". (١)

شروح الكتاب

لهذا الكتاب شروحات كثيرة منها:

١) شرح الشيخ العلامة صالح الفوزان.

٢) شرح الشيخ العلامة عبد الرحمن البراك.

٣) شرح الشيخ العلامة صالح آل الشيخ.

٤) شرح الشيخ العلامة محمد أمان الجامي.

٥) شرح الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي.

٦) شرح الشيخ الفاضل محمد باجمال الحضرمي.

٧) شرح الأخ الفاضل نائف العتيبي.

٨) شرح الأخ الفاضل أبي فيروز الادنوسي.

٩) شرح الأخ الفاضل سمير الجزائري.

١٠) شرح الدكتور سعد الشثري.

وقد استفدت من بعض هذه الشروح، والحمد لله ربّ العالمين.



---

(١) انظر الدرر السنية (١١/ ٣٦٧-٣٦٨).

ترجمة المصنِّف

اسمه ونسبه: الإمام الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمر من أوهبة بني تميم.

مولده: ولد هذا العالم (١١١٥) هجرية في بيت علم وشرف ودين، فأبوه عالم كبير وجده سليمان عالم نجد في زمانه.

نشأته: حفظ القرآن قبل بلوغ عشر سنين، ودرس في الفقه حتى نال حظاً وافراً، وكان موضع الإعجاب من والده لقوة حفظة، وكان كثير المطالعة في كتب التفاسير والحديث، وجد في طلب العلم ليلاً ونهاراً فكان يحفظ المتون العلمية في شتى الفنون، ورحل في طلب العلم في ضواحي نجد وفي مكة وقرأ على علمائها، ثم رحل إلى المدينة النبوية فقرأ على علمائها ومنهم العلامة الشيخ إبراهيم الشمري مؤلف العذب الفائض في شرح الفية الفرائض وعرفاه بالمحدث الشهير محمد حياة السندي، فقرأ عليه في علم الحديث ورجاله وأجازه بالأمهات، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى – قد وهبه الله فهماً ثاقباً وذكاء مفرطاً، وأكبَّ على المطالعة والبحث والتأليف، وكان يثبت ما يمر عليه من الفوائد أثناء القراءة والبحث، وكان لا يسأم من الكتابة، وقد خطَّ كتباً كثيرة من مؤلفات ابن تيمية وابن القيم – رحمها الله – ولا تزال بعض المخطوطات الثمينة بقلمه السيال موجودة بالمتاحف.

ولما توفّي والده أخذ يعلن جهراً بالدعوة السلفية إلى توحيد الله وإنكار المنكر ويهاجم المبتدعة وغيرهم من المشركين، وقد شد أزره الولاء من آل سعود وقويت شوكته وذاع خبره.

مؤلفاته:

له - رحمه الله تعالى - مؤلفات نافعة نذكر منها:

١) الكتاب الجليل المفيد المسمى "كتاب التوحيد". ٢) كشف الشبهات.

٣) الكبائر. ٤) مختصر الإنصاف والشرح الكبير.

٥) مختصر زاد المعاد. ٦) فتاوى ورسائل جمعت باسم مجموعة مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب تحت إشراف جامعة الإمام محمد بن سعود.

ثناء العلماء عليه:

قال الصنعاني في أبيات له:

سلامي على نجد ومن حل في نجد … وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

ثم قال:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه … يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهراً ما طوى كل جاهل … ومبتدع منه فوافق ما عندي
وَيْعمُر أركانَ الشريعة هادماً … مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد

وقال الشوكاني في البدر الطالع في ترجمة غالب بن مساعد أمير مكة (٢/ ٧): "وصل من صَاحب نجد الْمَذْكُور مجلدان لطيفان أرسل بهما إِلَى حَضْرَة مَوْلَانَا الإِمَام حفظه الله أَحدهمَا يشْتَمل على رسائل لمُحَمد بن عبد الْوَهَّاب كلهَا في الْإِرْشَاد إِلَى إخلاص التَّوْحِيد والتنفير من الشرك الذي يَفْعَله المعتقدون فِي الْقُبُور وهي رسائل جَيِّدَة مشحونة بأدلة الْكتاب وَالسّنة".

وفاته: قد توفي رحمه الله تعالى عام (١٢٠٦ هـ) فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين ﷺ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. [١]



(١) انظر مقدمة فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان على شرح كشف الشبهات للعلامة ابن عثيمين، وعنوان مجد في تاريخ نجد، والإمام محمد بن عبد الوهاب وسيرته لابن باز.

[مقدّمة المصنِف] (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)

---

(١) المقدمة في الأصل صفة، لأنها اسم فاعل، ثم نقلت من الوصفية، وجعلت اسما لمقدمة الجيش، ثم نقلت من مقدمة الجيش إلى مقدمة الكتاب أو العلم، ويجوز فيها كسر الدَّال وفتحها، فالمقدِّمة بكسر الدَّال اسم فاعل من (قدم)، بمعنى (تقدَّم) ومعناه أنها تكون مقدمة لك أيها القارئ لما فيها من بيان مقصود الكتاب.

والمقدمة بفتح الدال اسم مفعول من (قدَّمت الشيء) أي: جعلته مقدما، أي: أن هذه الكلمات مقدَّمة على الكتاب أمام المقصود ليسهل على الطالب فهم موضوع الكتاب.

والمقدمة مقدمتان: مقدمة علم ومقدمة كتاب.

فالأولى: ما يتوقف فهمه بفهم ذاك العلم، وهي المسمَّى عندهم المبادئ العشرة.

والثاني: ما ينبغي أن يذكر المصنِّف أمام المقصود.

قال بعض العلماء: ينبغي لكل شارع في التصنيف أن يذكر ثمانية أشياء:

منها أربعة واجبة وجوبا صناعيا وهي البسملة، والحمدلة، والصلاة على رسول الله ﷺ، والشهادتان.

ومنها أربعة مستحبة وهي: تسمية الكتاب، وتسمية المصنِّف، ولفظ (أمَّا بعد) والاتيان بما يدل على المقصود، ويقال براعة الاستهلال. انظر الكواكب الدرية (ص/ ٨) ونزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر (١/ ٣٣).

(٢) ابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالبسملة كما هي عادة المصنِّفين اقتداء بكتاب الله عز وجل لكونه مبدوء بالبسملة، واقتداء برسول الله ﷺ، فإنه كان يبتدئ رسائله بالبسملة، فقد ورد في الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ، فَأَتَوْهُ، قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُرِئَ، فَإِذَا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، السَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ».

وهي كذلك سنَّة الأنبياء فقد كتب سليمان عليه السلام البسملة في رسالته التي أرسل إلى ملكة سبأ، كما حكى الله عنه: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النمل: ٢٩-٣١].

=

يقول القرطبي رحمه الله: "اتفقت الأمة على كتابتها فِي أَوَائِلِ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ."

وجاء عن الشعبي أنه قال: "مضت السنَّة ألا يكتب في الشعر بسم الله الرحمن الرحيم".

وجاء عن سعيد بن جبير جواز ذلك، قال الخطيب: وهو المختار، وتابعة الجمهور على ذلك.

وذهب جماعة من أهل العلم إلى أنّ الكتب لا يبدأ فيها إلا بالبسملة دون الحمدلة، كما هو صنيع البخاري ومالك وعبد الرزاق وأحمد وأبي داود وغيرهم، وأمَّا الخطب فيبتدأ فيها الحمدلة دون البسملة، قال الحافظ: "فَطَرِيقُ التَّأَسِّي بِهِ الِافْتِتَاحُ بِالْبَسْمَلَةِ وَالِاقْتِصَارُ عَلَيْهَا."

والظاهر أنه إذا ابتدأ الشخص كتبه بالبسملة والحمدلة لا ينكر عليه؛ لأنه عمل أهل العلم منذ زمن قديم ولم ينكر عليهم أحد، وأما الأحاديث التي وردت في فضل البداءة بالبسملة والحمدلة فضعيفة كما بيَّنه العلامة الألباني في الإرواء رقم (١).

وامَّا حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "كلُّ خُطبَةٍ ليس فيها تشهُّدٌ فهي كاليدِ الجَذماء" فقد رواه أبو دواد وغيره بسند صحيح، وهو في الصحيح المسند للعلامة الوادعي رحمه الله.

وأمَّا (باء) البسملة فهي حرف جر، ومعناها الاستعانة عند أهل السنَّة والجماعة وضابط الاستعانة هي الداخلة على المستعان به في إيجاد الفعل، ولا يصلح أن يقال في مثل هذا المقام: هي الدَّاخلة على آلة الفعل، ولفظ (اسم) مشتق من السموّ عند البصريين، أي الاشتقاق الأصغر، أو من (وَسَمَ) عند الكوفيين أي: الاشتقاق الأوسط، وكلاهما صحيح.

والمجرور متعلق بفعل عند الكوفيين أو باسم عند البصريين، والأولى قول الكوفيين لأمور:

أ) لأن الأصل في العمل للأفعال.

ب) لأنه يفيد التجدد الاستمراري.

ت) لكثرة تصريح المتعلق الفعلي، نحو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق (١)].

ث) لقلة المحذوف.

ويقدَّر فعلا مناسبا للمقام لا عاما لأمور:

أ) لأنه أدل على المراد.

ب) لرعاية حق خصوصية المقام.

ت) لأنه لو قدرناه عاملا عاما كـ(أبتدئ) مثلا في كل موضع لتوهم أنَّ الاستعانة أو التبرك مطلوب في الابتداء فقط، مع أنه مطلوب في الانتهاء والوسط.

ويقدَّر فعلا مؤخَّرا لا مقدما لأمرين:

أَسْأَلُ (١) اللهَ (٢) الْكَرِيمَ (٣)

= أ) لإفادة الحصر، لأن تقديم المتعلق يفيد الحصر.

ب) التبرك بالبداءة باسم الله تعالى.

وأما لفظ الجلالة فهو علم على الذات الإلهية، وهو أعرف المعارف بالإجماع، وهو مشتق من الإله، ومعناه المعبود، والله هو المعبود بحق، وما عداه من الآلهة عبدت بباطل.

و(الرحمن الرَّحيم) اسمان يدلّان على صفة الرَّحمة، والأوَّل من الأسماء المختصة بالله جلَّ وعلا، لا يطلق على غيره، بخلاف الثاني فهو يطلق على الله وعلى غيره.

قال بعض العلماء: "إن البسملة تضمنت الشرع، لأنها تدل على الذات والصفات." قال القرطبي: "وهذا صحيح."

قلت: جمعت فيها أقسام التوحيد الثلاثة، فقوله (بسم الله) معناها أستعين الله، وهذا من توحيد الألوهيَّة، وقوله: (الله) يدل على الألوهيَّة وهي تتضمن الربوبيَّة، وقوله: (الرحمن الرحيم) فيه توحيد الأسماء والصفات، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم (٦٥)].

انظر تفسير القرطبي (١/ ٩١-٩٥) وحاشية ابن حمدون على المكودي (١/ ٧) والفتح للحافظ (١/ ٨) شرح الكشف لابن عثيمين (ص/ ١٣).

(١) أي: أدعوه أطلب من الله، والسؤال في اللغة يأتي بمعنى الاستخبار، يقال: سألته عن الشيء أي: استخبرته، ويأتي بمعنى الطلب والدعاء، وهو المراد هنا.

وفيه توسل إلى الله بكرمه وربوبيته للعرش الذي هو أعظم المخلوقات وأعلاها. انظر شرح القواعد للبراك (ص/ ٧).

(٢) تقدم الكلام عليه.

(٣) اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، والله هو الكريم الكثير الخير كثير الخير يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها وكفرها داع لزوالها.

وقد ورد هذا الاسم في القرآن في ثلاث مواضع، وهي: قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة النمل:٤٠]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الانفطار:٦].

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة المؤمنون:١١٦]. =

رَبَّ (١)

= قال ابن القيم: "فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع وهو من كل شيء أحسنه وأفضله والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه ووصف به عرشه ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن، قال الكلبي: (إنه لقرآن كريم) أي: حسن كريم على الله وقال مقاتل كرمه الله وأعزه لأنه كلامه وقال الأزهري الكريم اسم جامع لما يحمد والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة، وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة".

وفي لسان العرب: " الكَريم: مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وأَسمائه، وَهُوَ الْكَثِيرُ الْخَيْرِ الجَوادُ المُعطِي الَّذِي لَا يَنْفَدُ عَطاؤه، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْمُطْلَقُ. والكَرِيم: الْجَامِعُ لأَنواع الْخَيْرِ والشرَف وَالْفَضَائِلِ. والكَريم. اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحْمَد، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَرِيمٌ حَمِيدُ الفِعال".

انظر تفسير السعدي (ص/ ٦٠٥) والتبيان في أقسام القرآن (ص/ ٢٢٥) ولسان العرب جمع ابن منظور (١٢/ ٥١٠).

(١) الرَّبُّ يُطْلَقُ فِي اللُّغة عَلَى المالِك، وَالسَّيِّد، والمُدَبِّر، والمُرَبِّي، والقَيِّم، والمُنْعِم.

قال شيخ الإسلام: "والرَّبُّ هُوَ الْمُرَبِّي الْخَالِقُ الرَّازِقُ النَّاصِرُ الْهَادِي".

وهذه الكلمة لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون محلى بـ(أل) (الرَّب) فهذه الحالة لا تطلَقُ إلاَّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، ومنه قول النبي ﷺ: "فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ".

الثَّانية: أن تكون مضافة، فقد تطلق على الله كما تطلق على غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة يوسف:٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة يوسف:٢٣].

الثالثة: ألا تكون مضافة، ولا محلى بـ(أل)، فيقال: (هو رب)، فهذه الحالة كأنها خاصة بالله جلَّ وعلا، ولم أر من نص على ذلك.

والفرق بين الرب والإله أنهما من الكلمات التي إذا اجتمعتا افترقتا، فيكون معنى الإله المعبود، ومعنى الرب ما تقدم ذكره، وإذا افترقتا اجتمعتا، كما أفاده المصنف، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب. =

الْعَرْشِ[١] الْعَظِيمِ[٢] أن يتولَّاك في الدُّنيا والآخرة،[٣]

= انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤/ ١٣) والتفسير الكبير لابن تيمية (٢/ ٣٠٧) والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/ ١٧٩) والدرر السنية (١/ ١٠٦) (٣/ ١٢).

(١) العرش لغة سرير الملك، قال الله تعالى عن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وقال عن ملكة سبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]. وأما عرش المراد به هنا هو الذي استوى عليه الرحمن، وهو: عرش عظيم محيط بالمخلوقات، وهو أعلاها، وأكبرها، وإنما أضيف إلى الله من باب التشريف، وإلا فالله مالك جميع المخلوقات وخالقها. وإذا كان الله رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، كان ربا لما دونه من باب أولى وأحرى. انظر تلخيص الحموية لابن عثيمين (ص/ ٥٣) وتفسير السعدي (ص/ ٣٥٦).

(٢) يحتمل أن يكون (لفظ العظيم) صفة لله جلَّ وعلا، كما يحتمل أن يكون وصفا للعرش، وقد تقدم أن العرش أعظم المخلوقات، وأما العظيم الذي هو اسم لله جلَّ وعلا فَمَعْنَاهُ الْمَوْصُوفُ بِالْعَظَمَةِ، الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَلَا أَجَلُّ، وَلَا أَكْبَرُ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ التَّعْظِيمُ الْكَامِلُ فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَأَصْفِيَائِهِ.

قال ابن كثير: " وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَيْ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقِهِ، لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ من السموات وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَقَدَرُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ وَكِيلٌ.".

انظر شرح الواسطية للهراس (ص/ ٨٨) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢١٣).

(٣) أي: أن يكون الله حافظك وناصرك في الدنيا والآخرة، وذلك إذا كان الشخص مؤمنا تقيا، صالحا، وولاية الله نوعان: عامة، وخاصة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [سورة الأعراف:١٩٦].

قال الشوكاني: "وَوَلِيُّ الشَّيْءِ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُهُ وَيَقُومُ بِنُصْرَتِهِ، وَيَمْنَعُ مِنْهُ الضَّرَرَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ أَيْ: يَحْفَظُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، وَيَحُولُ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ".

وقال ابن القيم: "والولاية أصلها الحبّ، فلا موالاة إلا بحبّ.". وبنحوه لشيخ الإسلام.

انظر فتح القدير (٢/ ٣٧) والداء والدواء (ص/ ٥٣٤).

وأن يجعلك مباركا أينما كنت،(١)

(١) أي: أن يجعل فيك بركة ونفعا للناس في كل بلد تكون فيه، وفي كل موطن تحل فيه.

وَأَصْلُ الْبَرَكَةِ كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَثُبُوتُهُ وَتَبَارَكَ اللَّهُ ثَبَتَ الْخَيْرُ عِنْدَهُ، وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفا وفعلا منه تبارك وتعالى.

والبركة من الله وهي نوعان: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، وبركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك، ويجعلها الله في بعض الذوات كعيسى عليه السلام، لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم:٣١]. وفي بعض الأماكن كمكة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٦]. وفي بعض الأوقات كليلة القدر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الدخان:٣]. وفي بعض الكلمات، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴿٦١﴾﴾ [سورة النور:٦١].

قال الشنقيطي: "الْأَظْهَرُ فِي مَعْنَى تَبَارَكَ بِحَسَبِ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ أَنَّهُ تَفَاعَلَ مِنَ الْبَرَكَةِ، كَمَا جَزَمَ بِهِ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، وَعَلَيْهِ فَمَعْنَى تَبَارَكَ: تَكَاثَرَتِ الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرَاتُ مِنْ قِبَلِهِ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ عَظَمَتَهُ وَتَقَدُّسَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ ؛ لِأَنَّ مَنْ تَأْتِي مِنْ قِبَلِهِ الْبَرَكَاتُ وَالْخَيْرَاتُ وَيَدِرُّ الْأَرْزَاقَ عَلَى النَّاسِ هُوَ وَحْدَهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْعَظَمَةِ، وَاسْتِحْقَاقِ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ، وَالَّذِي لَا تَأْتِي مِنْ قِبَلِهِ بَرَكَةٌ وَلَا خَيْرٌ، وَلَا رِزْقٌ كَالْأَصْنَامِ، وَسَائِرِ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْبَدَ، وَعِبَادَتُهُ كُفْرٌ مُخَلِّدٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ".
ثم قال: "اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ: تَبَارَكَ فِعْلٌ جَامِدٌ لَا يَتَصَرَّفُ، فَلَا يَأْتِي مِنْهُ مُضَارِعٌ، وَلَا مَصْدَرٌ، وَلَا اسْمُ فَاعِلٍ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ، وَهُوَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا يُقَالُ لِغَيْرِهِ تَبَارَكَ خِلَافًا لِمَا تَقَدَّمَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ".
وقال ابن القيم: "فَإِنَّ النَّافِعَ هُوَ الْمُبَارَكُ، وَأَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ أَبْرَكُهَا، وَالْمُبَارَكُ مِنَ النَّاسِ أَيْنَمَا كَانَ هُوَ الَّذِي يُنْتَفَعُ بِهِ حَيْثُ حَلَّ".
وقال أيضا: "فَإِن بركَة الرجل تَعْلِيمه للخير حَيْثُ حل، ونصحه لكل من اجْتمع بِهِ، قَالَ الله تَعَالَى إِخْبَارًا عَن الْمَسِيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [سورة مريم:٣١] أَي: معلما للخير دَاعيا إِلَى الله، مذكرا بِهِ، مرغبا فِي طَاعَته، فَهَذَا من بركَة الرجل، وَمن خلا من هَذَا فقد خلا من الْبركَة، ومحقت بركَة لِقَائِه والاجتماع بِهِ، بل تمحق بركَة من لقِيه وَاجْتمعَ بِهِ.".
انظر شرح مسلم للنووي (١/ ٢٢٥) وبدائع الفوائد (٢/ ١٨٥-١٨٦) وزاد المعاد (٤/ ١٥٤) وجلاء الأفهام (ص/٣٤٧) ومفتاح دار السعادة (١/ ٢١٤) والمفردات للراغب (ص/ ١١٩) وأضواء البيان (٦/ ٥) وشرح القواعد الأربع للشثري (ص/ ٢١٩) ورسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص/ ٥).

وأن يجعلك ممن إذا أعطى شكر، [١]

---

(١) أي: أن يصيِّرك من الذين إذا أعطاهم الله عز وجل نعمة من النعم شكرها واستعملها في طاعته سبحانه وتعالى.

والشكر لغة: عرفان الإحسان ونشره، أي: التحدّث به، وقيل: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهورا بينا. واصطلاحا: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا. وعلى قلبه: شهودا ومحبة. وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة.

ويظهر من هذا أن له ثلاث آلات، القلب، واللسان والجوارح، قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفَــــادَتْكُمُ النَّعْمَـــــاءُ مِنِّـــــي ثَلاَثَـــــةً ... يَــــدِي وَلِسَــــانِي وَالضَّـــمِيْرَ الْمُحَجَّبَـــا

وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته.

وأركانه خمسة:

١) خضوع الشاكر للمشكور.

٢) وحبه له.

٣) واعترافه بنعمته.

٤) وثناؤه عليه بها.

٥) وألا يستعملها فيما يكره.

قال ابن القيم: "فهذه الخمس: هي أساس الشكر. وبناؤه عليها. فمتى عدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة. وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور."

وقال أيضا: "فإن أصل الشّكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقربها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضى به وعنه واستعملها فى محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها. فلا بد فى الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم- وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له".

والشكر يكون في النعمة وفي البلاء إلا أنه يجب الشكر على النعمة، وأما البلاء فيجب فيها الصبر وهو لا يتم إلا بالشّكر. =

وإذا ابتلي[(١)] صبر،[(٢)]

= قال الحافظ ابن حجر: "وَالْحَاصِلُ أَنَّ الشُّكْرَ يَتَضَمَّنُ الصَّبْرَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالصَّبْرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: الصَّبْرُ يَسْتَلْزِمُ الشُّكْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ، وَبِالْعَكْسِ، فَمَتَى ذَهَبَ أَحَدُهُمَا ذَهَبَ الْآخَرُ، فَمَنْ كَانَ فِي نِعْمَةٍ فَفَرْضُهُ الشُّكْرُ وَالصَّبْرُ، أَمَّا الشُّكْرُ فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا الصَّبْرُ فَعَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ كَانَ فِي بَلِيَّةٍ فَفَرْضُهُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ أَمَّا الصَّبْرُ فَوَاضِحٌ وَأَمَّا الشُّكْرُ فَالْقِيَامُ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْبَلِيَّةِ فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَى الْعَبْدِ عُبُودِيَّةً فِي الْبَلَاءِ كَمَا لَهُ عَلَيْهِ عُبُودِيَّةً فِي النَّعْمَاءِ".

وقول الحافظ: (قال بعض الأئمة) إنما يريده ابن القيم، وكلامه في طريق الهجرتين، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

انظر مدارج السالكين (٢/ ٢٣٤) وبدائع الفوائد (٢/ ١٩) وطريق الهجرتين (ص/ ٩٥) (٢٦٥) وشرح القواعد للبراك (ص/ ٩) والفتح الباري (١١/ ٣٠٥).

(١) أصل الابتلاء هو الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشرِّ، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ [سورة الأنبياء:٣٥].

والابتلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام: فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه أو في أهله ومن يحب. والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله. وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس.

قال ابن القيم: "وَإِذا تَأَمَّلت حكمته سُبْحَانَهُ فِيمَا ابتلى بِهِ عباده وصفوته بِمَا ساقهم بِهِ الى أجل الغايات وأكمل النهايات الَّتِي لم يكونوا يعبرون اليها إِلَّا على جسر من الِابْتِلَاء والامتحان، وَكَانَ ذَلِك الجسر لكماله كالجسر الَّذِي لَا سَبِيل الى عبورهم الى الْجنَّة إِلَّا عَلَيْهِ، وَكَانَ ذَلِك الِابْتِلَاء ولامتحان عين الْمنْهَج فِي حَقهم والكرامة، فصورته صُورَة ابتلاء وامتحان وباطنه فِيهِ الرَّحْمَة وَالنعْمَة".

انظر مفتاح دار السَّعادة (ص/ ٢٩٩) وإغاثة اللهفان (٢/ ١٩٤).

(٢) أي: أن يصيِّرك من الذين إذا ابتلوا صبروا، والصبر فهو لغة: الحبس والكفّ.

واصطلاحا: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش. وهو مفتاح النصر والظفر.

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١) صبر على طاعة الله.
٢) صبر عن معصية الله.
٣) صبر على مقدار الله وابتلائه. =

وإذ أذنب استغفر. (١)

= فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وإذا اجتمع في قلب العبد الصبر والشكر فقد فاز، وهما من علامات المؤمن، وقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة إبراهيم:٥].

وفي صحيح مسلم عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

قال شيخ الإسلام: "وإذا اعتبر العبدُ الدينَ كلَّه رآه يَرجِعُ بجملته إلى الصبر والشكر".

وقال ابن القيم: "وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبار، فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه.

والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم. والذي قبله في الوصف والكيف."

وَمَنْ كَانَ فِي بَلِيَّةٍ فَفَرْضُهُ الصَّبْرُ وَالشُّكْرُ أَمَّا الصَّبْرُ فَوَاضِحٌ وَأَمَّا الشُّكْرُ فَالْقِيَامُ بِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تِلْكَ الْبَلِيَّةِ، كما تقدَّم من كلام الحافظ نقلا عن ابن القيم. فراجعه.

انظر المدارج لابن القيم (٢/ ١٥٦-١٥٨) وكتاب الروح (ص/ ٨٦) وجامع المسائل لشيخ الإسلام (١/ ١٦٥) والفتح الباري (١١/ ٣٠٥).

(١) أي: أن يجعلك ممن إذا أثم وعصى وفعل حراما، أو ترك واجبا استغفر وتاب إلى الله.

والذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، والاستغفار هو طلب الغفران. والغفران: تغطية الذّنب وستره بالعفو عنه. وهو أيضا طلب ذلك بالمقال والفعال.

قال ابن القيم: "فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر، فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم."

وقال أيضا: "فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعاوده في المستقبل. والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة. ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له."

انظر نضرة النعيم (٢/ ٢٥٣) والمدارج (١/ ٣١٤) (١/ ٢٠٠) وانظر مجموع رسائل ابن رجب- تفسير سورة النصر (٢/ ٥١٨).

فإن هؤلاء الثَّلاثِ (١) عنوان السَّعادة. (٢)

(١) وهي الشكر والصبر والاستغفار.

قال العلامة النجمي: "يا لها من دعوة ما أعظمها، فمن تولاه الله في الدنيا والآخرة فقد فاز ونجا، وحاز الدرجات العلا، وأكرمه الله بالجنة التي من دخلها يحيا فلا يموت، ويصح فلا يسقم، ويشب فلا يهرم."
وقال العلامة صالح آل الشيخ: "وهذا كما هو معلوم فيه التنبه على أن مبنى العلم ومبنى الدعوة الرحمة، والتراحم بين المعلِّم والمتعلم، وبين الداعية والمدعو، لأن الرحمة في ذلك سبب التواصل، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]."
انظر التعليقات البهية على الرسائل العقدية (ص/ ١٥٩) وشرح القواعد الأربع لصالح آل الشيخ (ص/ ١٢).

(٢) أي: ما يستدل به على أن من اتصف بها يكون سعيدا، و(عنوان) يجوز فيه لغتان: ضم العين وكسرها، وذلك لإنَّ العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث، وهي النعمة والبلية والذنب، ولا ينفك عبد عنها أبداً.

والسَّعَادَةُ: معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير.
قال العلامة صالح آل الشيخ: "وهذه الثلاث متلازمة في حال كلِّ موحِّد، وهي الشكر على العطاء والصبر على البلاء، والاستغفار من الذنب والعصيان، وكلما عظمت معرفة العبد بربه كلما عظم هذه الثلاث، وكلما عظم التوحيد في القلب عظمت هذه الثلاث، حتى يصير العبد لا يرى سوى الله عز وجل في استحقاق شيء من أعماله وتصرفاته".
وقال العلامة الجامي: "فمن وفق إلى هذه العناوين الثلاثة، فقد وفق كل التوفيق".
وأما الأصول الَّتِي انبنى عَلَيْهَا سَعَادَة العَبْد فثَلَاثَة، وَلكُل وَاحِد مِنْهَا ضد، فَمن فقد ذَلِك الأَصْل حصل على ضِدّه: التَّوْحِيد وضده الشّرك، وَالسّنة وضدها الْبِدْعَة، وَالطَّاعَة وضدها الْمعْصِيَة، ولهذه الثَّلَاثَة ضد وَاحِد: وَهُوَ خلو الْقلب من الرَّغْبَة فِي الله، وَفِيمَا عِنْده، وَمن الرهبة مِنْهُ، وَمِمَّا عِنْده. قاله ابن القيم.
انظر الوابل الصيب (ص/ ٥) وشرح القواعد لآل الشيخ (١٦-١٧) وشرح القواعد للجامي (ص/ ٣٤) ومفردات القرآن للراغب (ص/ ٤١٠) والفوائد لابن القيم (ص/ ١٠٨).

تنبيه:

أخذ المصنف هذا المقدمة من مقدّمة كتاب الوابل الصيِّب للإمام ابن القيم رحمه الله (ص/ ٥).

[تَمهِيد]

اعلم[(١)] أرشدك الله [(٢)]

---

(١) فعل أمر من العلم، وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع، أي: كن متهيئاً ومتفهماً لما يلقى إليك من المعلوم.

وكلمة (اعلم) يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة الذي ينبغي للمتعلم أن يصغي إلى ما يلقى إليه منها، وما أقره المصنف هنا من قواعد التوحيد حقيق بأن يهتم به غاية الاهتمام، ويعتني به أشد الاعتناء، ويصغى إليه حقيقة الإصغاء.

قال شيخ الإسلام: "وَالْعِلْمُ: هُوَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ وَهُوَ: السُّلْطَانُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ [سورة غافر:٥٦]. فَمَنْ تَكَلَّمَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ كَانَ مُتَكَلِّمًا بِغَيْرِ عِلْمٍ."

وقال أيضا: "وَقَدْ كَتَبْت قَدِيمًا فِي بَعْضِ كُتُبِي لِبَعْضِ الْأَكَابِرِ: إنَّ الْعِلْمَ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ وَالنَّافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَالشَّأْنُ فِي أَنْ نَقُولَ عِلْمًا وَهُوَ النَّقْلُ الْمُصَدَّقُ وَالْبَحْثُ الْمُحَقَّقُ فَإِنَّ مَا سِوَى ذَلِكَ وَإِنَّ زَخْرَفَ مِثْلَهُ بَعْضُ النَّاسِ خَزَفٌ مُزَوَّقٌ وَإِلَّا فَبَاطِلٌ مُطْلَقٌ".

انظر حاشية ثلاثة الأصول لابن قاسم (ص/ ١٣-١٤) وشرح كشف الشبهات لابن عثيمين (ص/ ١٩) ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨/ ٣٩) (٦/ ٣٨٨).

(٢) دعاء بمعنى الخبر، أي: هداك الله ووفقك للرشد، وهو لغة: ضد الغي.

واصطلاحا: هو العلم بما ينفع والعمل به.

والمراد بالرشد هنا هو الاستقامة على طريق الحق والتوحيد، والفرق بين الرشد والهدى أنهما من الكلمات التي إذا افترقا اجتمعتا وإذا اجتمعتا افترقتا، فالهدى حينئذ هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به، وضدهما هو الغي واتباع الهوى.

قال شيخ الإسلام: " والرُّشْدُ الْعَمَلُ الَّذِي يَنْفَعُ صَاحِبَهُ، وَالْغَيُّ الْعَمَلُ الَّذِي يَضُرُّ صَاحِبَهُ، فَعَمَلُ الْخَيْرِ رُشْدٌ، وَعَمَلُ الشَّرِّ غَيٌّ".

وقال الإمام البغوي: "وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا، فَيَقُولُ: الرُّشْدُ -بِالضَّمِّ -الصَّلَاحُ فِي الْأَمْرِ، وَبِالْفَتْحِ الِاسْتِقَامَةُ فِي الدِّينِ.". =

لطاعته(١) أنَّ الحنيفيَّة(٢) ملَّةَ إبراهيم(٣)

= وقال السعدي: "والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم".
انظر إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ١٦٨) ومجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٥٦٩) ومعالم التنزيل (٣/ ٢٨٢) وتفسير السعدي (ص/ ٨٩٠) وتفسير القرطبي (١٦/ ٣١٤).

(١) الطاعة لغة: هو الإذعان والانقياد والموافقة من غير مخالفة، يقال: أطاع زيد عمرا إذا انقاد له، ولم يخالفه.

واصطلاحا: هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة.
والطاعة بالنسبة إلى الله فهي عبادة له، لأن عبادته طاعته في فعل الأمور وترك المحظور، وأما بالنسبة إلى غيره فليست بعبادة له، بمعنى أن طاعة أحد في شيء لا تكون عبادة له مطلقا إلا ما استثني من ذلك، كشرك الطاعة، وذلك لأنها تكون للنبي صلى الله عليه وسلم وللوالدين، وللأمراء والعلماء، وهي عبادة لله عز وجل لا لهم، والإنسان قد يطيع ملكا من ملوك الدنيا وهو يكرهه.
انظر تفسير السعدي (ص/ ٧٨٩) والقول المفيد لابن عثيمين (٢/ ٣١٢).

(٢) من الحنف، وهو الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيف هو الْمقبل على الله المعرض عَمَّا سواهُ، وَمن فسره بالمائل فَلم يفسره بِنَفس مَوْضُوع اللَّفْظ، وَإِنَّمَا فسره بِلَازِم الْمَعْنى، فَإِن الحنف هُوَ الإقبال، وَمن أقبل على شَيْء مَال عَن غَيره، والحنف فِي الرجلَيْن: هُوَ إقبال إِحْدَاهمَا على الْأُخْرَى وَيلْزمهُ ميلها عَن جِهَتهَا، كذا قاله ابن القيِّم.

انظر جلاء الأفهام (ص/ ٢٦٩) ومجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٩) (٩/ ٣١٩).

(٣) أي: الملة الحنيفية التي هي طريقة إبراهيم، ودينه الذي شرعه له ولغيره من الأنبياء، والمراد بالملة هنا الدين.

قال الراغب: "المِلَّة كالدّين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله".

وإبراهيم هو ابن آزر بْنِ نَاحُورَ بْنِ سَارُوغَ بْنِ رَاغُوَ بْنِ فَالَغَ بْنِ عَابَرَ بْنِ شَالَخَ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيل: اسم أبيه تَارَخُ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ.
والدليل على أن الحنيفية ملة إبراهيم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٣٥]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٦٧]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٥]. =

أن تعبد الله وحده (١)

= وقد ثبت عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أنه قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْأَدْيَانِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٥٩٥): "فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَكَيْفَ أُضِيفَ الْحَنِيفِيَّةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَتْبَاعِهِ عَلَى مِلَّتِهِ خَاصَّةً دُونَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ وَأَتْبَاعِهِمْ؟

قِيلَ: إِنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ حَنِيفًا مُتَّبِعًا طَاعَةَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَمْ يَجْعَلْ أَحَدًا مِنْهُمْ إِمَامًا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَالَّذِي فَعَلَ مِنْ ذَلِكَ بِإِبْرَاهِيمَ، فَجَعَلَهُ إِمَامًا فِيمَا بَيَّنَهُ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَالْخِتَانِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، تَعَبُّدًا بِهِ أَبَدًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَجَعَلَ مَا سَنَّ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا مُمَيِّزًا بَيْنَ مُؤْمِنِي عِبَادِهِ وَكُفَّارِهِمْ وَالْمُطِيعِ مِنْهُمْ لَهُ وَالْعَاصِي، فَسُمِّيَ الْحَنِيفُ مِنَ النَّاسِ حَنِيفًا بِاتِّبَاعِهِ مِلَّتَهُ وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى هَدْيِهِ وَمِنْهَاجِهِ، وَسُمِّيَ الضَّالُّ عَنْ مِلَّتِهِ بِسَائِرِ أَسْمَاءِ الْمِلَلِ، فَقِيلَ: يَهُودِيٌّ وَنَصْرَانِيٌّ وَمَجُوسِيٌّ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْمِلَلِ."

انظر البداية والنهاية (١/ ٣٢٤). وتفسير الطبري (٩/ ٣٤٤) والمفردات للراغب (ص/ ٧٧٣).

(١) يعني أنَّ ملَّة إبراهيم الحنيفية هي عبادة الله وحده مع إخلاص الدين له.

قال شيخ الإسلام في تفسير آيات أشكلت على العلماء (١/ ٣٩٤): "والقرآن كله يدل على أن الحنيفية هي ملة إبراهيم وأنها عبادة الله وحده والبراءة من الشرك، وعبادته سبحانه إنما تكون بما أمر به وشرعه، وذلك يدخل في الحنيفية".

وقال ابن القيم في جلاء الأفهام(ص/ ٢٦٨): "وَهِي التَّوْحِيد وَعبادَة الله تَعَالَى وَحده لَا شريك لَهُ ومحبته فَوق كل محبَّة".

والعبادة لغة: هو التذلل والخضوع، ومنه قولهم (طريق معبَّد) (بعير معبَّد) أي: مذلل.

واصطلاحا أي: في الشرع: عبارة عما يجمع فيه غاية وكمال المحبَّة والخضوع، سواء لذاته أو لغيره لكونه وسيطا، والعبادة بهذا المعنى حق خاص لله جلَّ وعلا.

فزاد الشرع وجود المحبَّة على المعنى اللغوي، وهو الخضوع، كما نبَّه عليه بعض العلماء.

قال شيخ الإسلام: " وَالْعِبَادَةُ تَجْمَعُ كَمَالَ الْحُبِّ مَعَ كَمَالِ الذُّلِّ."

وقال أيضا: "والعبادة أصلُها عبادة القلب، وهي غاية الذلّ بغاية الحبِّ، وذلك إنما يكون بشعورٍ في القلب وعلمٍ وإحساس وبإرادةٍ وقصدٍ واختيار."

وقال أبا بطين: "ومن عرفها بالحب من الخضوع، فلأن الحب التام، مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب والانقياد له، فالعبد، هو الذي ذل لله الحب والخضوع لمحبوبه، فبحسب محبة العبد لربه وذله له، تكون طاعته." =

=

ولها إطلاقان:

أ) إطلاق فعلي، وهو التذلّل للمعبود محبة وتعظيما، سواء لذاته، أو لغيره، وهو فعل العباد، فتحركاته عند التذلل وأفعاله تسمى عبادة في الشرع.

ب) إطلاق مفعولي، وهي ما يتعبَّد به المعبود، أي: صور العبادة التي يقوم بها العبد، من صلاة أو غيره، سواء كانت مشروعة أم لا، فهي تسمى عبادة.

انظر تفسير ابن كثير (١/ ٤٨) وشبهات توحيد العبادة (١/ ١٢٤) وما بعدها. ومجموع الفتاوى (٨/ ١٤١) (١٠/ ٢٥١) وجواب الاعتراضات المصريَّة (ص/ ٩١) والجواب الصحيح (٦/ ٣١) والنبوات (ص/ ٨٨) والدرر السنية (٢/ ٢٩٠).

المسألة الثانية: ركنا العبادة:

يظهر مما تقدَّم أن للعبادة ركنين، هما: وجود غاية الذل والخضوع، ووجود غاية المحبَّة والرَّغبة. فمتى وجد هذين الأمرين، فقد وجدت العبادة.

قال ابن القيم في النونية:

وعبـــادة الـــرحمن غايـــة حبـــه ... مـــع ذل عابـــده همـــا قطبـــان

وعليهمـــا فلـــك العبـــادة دائـــر ... مـــا دار حتـــى قامـــت القطبـــان

وقال أيضا: "والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له، لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا."

وقال شيخ الإسلام: " وَهِيَ اسْمٌ يَجْمَعُ كَمَالَ الْحُبِّ لِلَّهِ وَنِهَايَتَهُ، وَكَمَالَ الذُّلِّ لِلَّهِ وَنِهَايَتَهُ، فَالْحُبُّ الْخَلِيُّ عَنْ ذُلٍّ وَالذُّلُّ الْخَلِيُّ عَنْ حُبٍّ لَا يَكُونُ عِبَادَةً، وَإِنَّمَا الْعِبَادَةُ مَا يَجْمَعَ كَمَالَ الْأَمْرَيْنِ وَلِهَذَا كَانَتْ الْعِبَادَةُ لَا تَصْلُحُ إلَّا لِلَّهِ وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ مَنْفَعَتُهَا لِلْعَبْدِ وَاَللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ فَهِيَ لَهُ مِنْ جِهَةِ مَحَبَّتِهِ لَهَا وَرِضَاهُ بِهَا."

انظر الكافية الشافية (ص/ ٣٥) والمدارج (١/ ٩٥-٩٦) ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٩).

المسألة الثَّالثة: أقسَامُ العِبَادة

للعبادة أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة، فمنها:

١) باعتبار ذاتها:

فهي بهذا الاعتبار تنقسم إلى خمسة أقسام:

الأول: العبادات الاعتقاديَّة، أي: قول القلب واعتقاده وعمله.

الثاني: العبادات القولية، أي: المتعلقة باللسان، ومنها الذكر والدعاء وتلاوة القرآن.

=

=

الثالث: العبادات البدنية، أي: التي تؤدى بالجوارح، كالصلاة والصيام والجهاد.

الرابع: العبادات المالية، كالزكاة والصدقة، والنذر بالمال.

الخامس: التركية، ككف القلب واللسان والجوارح عن المحرمات.

٢) باعتبار حكمها:

فهي بهذا الاعتبار تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل: عبادة شرعيَّة، وهي العبادة التي وردت في الشرع، مع الإخلاص لله جلَّ وعلا، فيجتمع فيها الإخلاص والمتابعة.

والأشياء التي يتعبد بها الرب جلَّ وعلا هي ما جمعه شيخ الإسلام بقوله: " اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ."

وقيل: ما أمر به شرعا، من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي.

الثاني: عبادة بدعيَّة، وهي العبادة التي لم ترد في الشرع، ولو وجد فيها الإخلاص، كبدعة المولد.

الثالث: عبادة شركيَّة، وهي التي لم يوجد فيها الإخلاص والتوحيد، سواء كانت مأمورة في الشرع أم لا، قال عبد الرحمن بن حسن: "المشرك، لا بد أن يحب معبوده، ولا بد أن يذل له".

انظر تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص/ ٥٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٦) والدرر السنية (٢/ ٢٤٩)

المسألة الرَّابعة: كيفية معرفة العبادة الشرعيَّة

تعرف بأمور منها:

١) أمر الشارع بها، مثاله قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [سورة المائدة:٢٣].

٢) نهي الشارع عن تركها، مثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ ٢٨٢﴾ [سورة البقرة:٢٨٢].

٣) ثناء الشارع على فاعلها، نحو قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾ [سورة الإنسان:٧].

٤) ذكر الثَّواب لهذا الفعل، ﴿۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ [سورة المائدة:١٢].

٥) ذم الشارع تاركها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾ [سورة الحاقة:٣٤].

=

مخلصًا له الدِّين. (١)

= ٦) ذكر العقاب لتارك هذا الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [سورة النساء:٩٧].

٧) ذم من صرفها لغير الله، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

ومثله ما رواه مسلم برقم (١٩٧٨) عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

٨) تنصيص الشَّارع على أنها عبادة، ومثاله ما أخرجه الخمسة وصححه الألباني والوادعي في الصحيح المسند (٢/ ٢١٥) عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠].

٩) تنصيص الشارع على أنها من الدِّين، أو من الإيمان، مثاله ما في الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ».

١٠) تكفير الشارع أو تفسيقه تاركه، وإن كان كفرا أو فسقا أصغر، نحو: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [سورة المائدة:٤٤]. ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [سورة المائدة:٤٧].

وهذه فائدة عزيزة لم أر من ذكرها على هذا السياق، أو جمعها قريبا من هذا الجمع.

(١) الإخلاص لغة: مأخوذ من مادة (خ، ل، ص) وهي تدل على التنقية والتهذيب. تَقول: أخلصت السّمن: أَي جعلته خَالِصا.

واصطلاحا: هو تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وهو نقيض الرياء والسمعة والشرك.

قال الحافظ الحكمي: الْإِخْلَاصُ هُوَ تَصْفِيَةُ الْعَمَلِ بِصَالِحِ النِّيَّةِ عَنْ جَمِيعِ شَوَائِبِ الشِّرْكِ."

وقال شيخ الإسلام: "وَالْحَنِيفِيَّةُ هِيَ الِاسْتِقَامَةُ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُبَّهُ تَعَالَى وَالذُّلَّ لَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا لَا فِي الْحُبِّ وَلَا فِي الذُّلِّ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ وَذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ وَكَذَلِكَ الْخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ". =

وبذلك[١] أمر الله جميع الناس،[٢] وخلقهم لها،[٣]

= وقال أيضا: " فَالدِّينُ الْحَنِيفُ هُوَ الْإِقْبَالُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهُ. وَهُوَ الْإِخْلَاصُ الَّذِي تَرْجَمَتْهُ كَلِمَةُ الْحَقِّ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)."

انظر معارج القبول (٢/ ٥٢٣) ومجموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٦) (٩/ ٣١٩).

(١) أي: عبادة الله وحده، مع إخلاص الدين له سبحانه وتعالى.

(٢) أي: المكلفين من الجن والإنس، ولفظ الناس يطلق على الجن والإنس، ففي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود قَالَ: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الجِنِّ يُعْبَدُونَ فَأَسْلَمُوا». أفاده شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله تعالى.

بل أمر الله نبيه محمدا أن يتبع ملة إبراهيم، بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [سورة النحل:١٢٣].

قال ابن كثير: "وَلَيْسَ يَلْزَمُ من كونه ﷺ أُمِرَ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةِ، أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَكْمَلَ مِنْهُ فِيهَا، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ بِهَا قِيَامًا عَظِيمًا، وَأُكْمِلَتْ لَهُ إِكْمَالًا تَامًّا، لَمْ يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا الْكَمَالِ، وَلِهَذَا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ."

تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٢).

(٣) أي: إن الله خلق الخلق لعبادته الْجَامِعَةِ لِمَعْرِفَتِهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ فَبِذِكْرِهِ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ؛ وَبِرُؤْيَتِهِ فِي الْآخِرَةِ تَقَرُّ عُيُونُهُمْ، وَحَاجَتُهُمْ إلَيْهِ فِي عِبَادَتِهِمْ إيَّاهُ وَتَأَلُّهِهِمْ كَحَاجَتِهِمْ وَأَعْظَمَ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ وَرُبُوبِيَّتِهِ إيَّاهُمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْغَايَةُ الْمَقْصُودَةُ لَهُمْ؛ وَبِذَلِكَ يَصِيرُونَ عَامِلِينَ مُتَحَرِّكِينَ، وَلَا صَلَاحَ لَهُمْ وَلَا فَلَاحَ؛ وَلَا نَعِيمَ وَلَا لَذَّةَ؛ بِدُونِ ذَلِكَ بِحَالِ. قاله شيخ الإسلام.

قال ابن القيم: "وَالْحق الَّذِي خلقت بِهِ السَّمَوَات وَالْأَرْض وَمَا بَينهمَا هُوَ إلهية الرب، المتضمنة لكَمَال حكمته، وَملكه، وأمره، وَنَهْيه المتضمن لشرعة، وثوابه وعقابه، المتضمن لعدله وفضله ولقائه، فَالْحق الَّذِي وجد بِهِ الْعَالم: كَون الله سُبْحَانَهُ هُوَ الْإِلَه الْحق المعبود، والآمر الناهي، الْمُتَصَرف فِي الممالك بِالْأَمر وَالنَّهْي."

انظر مجموع الفتاوى (١/ ٢٣) ومفتاح دار السعادة (٢/ ٢٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سورة الذاريات:٥٦]. (١)

فإذا عرفت: أن الله خلقك لعبادته، (٢) فاعلم أن العبادة لا تسمَّى عبادة (٣)

---

(١) قال ابن كثير: "وَمَعْنَى الْآيَةِ: أنه تبارك وتعالى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَمِنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ. وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ بَلْ هُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ. فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ."

وقال ابن القيم: "فَأَخْبر سُبْحَانَهُ أَنه إِنَّمَا خلقهمْ لِلْعِبَادَةِ وَكَذَلِكَ إِنَّمَا أرسل إِلَيْهِم رسله وَأنزل عَلَيْهِم كتبه ليعبدوه فالعبادة هِيَ الْغَايَة الَّتِي خلقُوا لَهَا".

انظر تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٦) والفوائد (ص/ ١٢٢).

(٢) أي: علمت وأيقنت أن الغاية التي خلق الإنسان لأجلها، والنهاية التي طلب منهم هي العبادة، وجواب الشرط قوله: (فاعلم) إلخ.

(٣) أي: لا يقال في شيء إنه عبادة، إلا إذا كانت العبادة مع التوحيد، وهذه عبارة مشكلة، وذلك لأن ظاهرها أن لفظ العبادة محصورة في العبادة الشرعية، وقد تقدَّم أن العبادة قد تكون شركيَّة، وقد تكون بدعيَّة، مع أنه يقال: إنها عبادة، وقد سمَّى الله عبادة في آيات كثيرة من القرآن، وذكر أنهم يعبدون، إذ هي التذلل التام مع المحبة التامة، وهي قد تكون لغير الله، وهو كفر، كما تكون لله عز وجل المستحق لها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾ [سورة يونس:١٨]. ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾ [سورة هود:١٠٩]. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سورة سبأ:٤١]. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [سورة الكافرون:١-٦].

ولذلك سمَّى الله معبوداتهم آلهة، كقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾ [سورة الكهف:١٥]. ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾ [سورة مريم:٨١]. ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ =

= ﴿أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأنبياء:٤٣]. ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأحقاف:٢٨].

ولكن الذي يظهر لي أنَّ مراد المصنِّف هو أن العبادة لا تكون عبادة صحيحة شرعيَّة يطلب الشخص ثوابها، ويعتدّ بها، وتكون مقبولة عند الله جلَّ وعلا، إلا إذا كانت مع التوحيد، وسرّ ذلك أن العبادة عمل يتقرب به إلى الله عز وجل سواء كان فاعله مشركا أو مسلما، فكلٌّ يريد من الله، لا من غيره، ويدَّعي أنه يعبده، ولكن الله لا يقبل هذه العبادة إلا إذا وجد فيها شرطا الإخلاص والمتابعة.

قال شيخ الإسلام: "وذلك أن توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده فمن عبد الله وحده لم يشرك به شيئًا فقد وحده، ومن عبد من دونه شيئًا من الأشياء فهو مشرك به ليس بموحد مخلص له الدين".

وقال العلامة أبا بطين: "وأمَّا العبادة من حيث هي، فهي أعم من كونها توحيدا عموما مطلقا، فكل موحد عابد لله، وليس كل من عبد الله يكون موحدا، ولهذا يقال عن المشرك: إنه يعبد الله، مع كونه مشركا، كما قال الخليل: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الشعراء:٧٥-٧٧]. وقال عليه السلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الزخرف:٢٧-٢٨]. فاستثنى الخليل ربه من معبوديهم، فدل على أنهم يعبدون الله.".

ولكن ينبغي أن يتنبه أن المشرك لا يوصف بأنه عابد لله سبحانه وإن عبده، لأن الله نفى عنهم الاسم الدال على الوصف والثبوت، ولم ينف وجود الفعل الدال على الحدوث والتجدد، فقال تعالى: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ [سورة الكافرون:٣].

وقد نبه الإمام ابن القيم على هذه الفائدة الطيبة بكلام جميل طويل وفيه: "وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم، فليس هذا الوصف ثابتا لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة، لم يشرك معه فيها أحدا، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إلا اللَّهَ﴾ أي: اعتزلتم معبودهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه وكذا قال المشركون عن معبودهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفي الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا على عبادة الله موصوفا بها. فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيّها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلا، لم يلتفت إلى غيره لم يشرك به أحدا في عبادته، وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدا لله، ولا عبدا له، وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة، التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن، وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده، فلله الحمد والمنة" =

إلا مع التَّوحيد، (١)

= انظر بيان تلبيس الجهمية (٣/ ١٣٨) وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢١٠) ومجموع فتاوى ابن باز (٢٤/ ١٥٦) والمدارج (١/ ٦٧) والدرر السنية (٢/ ٢٩١) وبدائع الفوائد (١/ ١٣٧).

(١) أي: توحيد الألوهيَّة، والتوحيد لغة: من: وحَّد يوَحِّد توحيدا، ووزن (فعَّل) يأتي لمعان منها: نسبة الشيء إلى أصل الفعل، كفسَّقْت زيدًا، أو كفَّرته: نسبته إلى الفسق، أو الكفر.

وهذه الكلمة من هذا الباب، فالتوحيد لغة: نسبة الرَّب إلى الوحدانيَّة، تقول: وحَّدت الله أي: نسبت الوحدانيَّة إليه، ويؤيِّده ما ورد في تهذيب اللغة للأزهري (٥/ ١٩٢): أن الفراء قال: "والله الواحد الأحد ذو الوحدانيَّة والتوحد."

وقيل: جعل الشيء واحدا، وانتقده السفاريني وصديق حسن خان وقالا: إن التوحيد تَفْعِيلٌ لِلنِّسْبَةِ كَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، لَا لِلْجَعْلِ فَمَعْنَى وَحَّدْتُ اللَّهَ نَسَبْتُ إِلَيْهِ الْوَحْدَانِيَّةَ، لَا جَعَلْتُهُ وَاحِدًا، فَإِنَّ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ - تَعَالَى - ذَاتِيَّةٌ لَهُ لَيْسَتْ بِجَعْلِ جَاعِلٍ.

وأجيب بأن المراد بالجعل هنا أي: جعله في اعتقاده.

واصطلاحا: إفراد الله جلَّ وعلا بما يختصُّ به من الربوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصفات.

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣/ ٧٤): "وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ: وَهُوَ أَنْ لَا يَشْرَكُهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا عَلَى وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ."

ولمَّا تتبع العلماء أدلة التوحيد من الكتاب والسنَّة اتفقوا على تقسيمه، لأن القرآن ورد فيه تارة إقرار قريش له، وتارة إنكارهم، فدلَّ على أن نوع الذي تنكره قريش غير الذي تقرّه، كما أن منه مفطور على الإنسان لا يحتاج إلى بيان واضح ومنه غير ذلك، والتتبع والاستقراء التام من الأدلة التي تفيد اليقين.

وقد اجتمعت هذه الأقسام في سورة الفاتحة وفي البسملة، وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم (٦٥)]

ووجه تقسيمه أن من التَّوحيد ما يتعلَّق بأفعال الله، ومنه ما يتعلق بأفعال المخلوقين، فتوحيد العبد لخالقه فيما يتعلق بأفعال الله فهو توحيد الربوبية، وتوحيد العبد لربَّه فيما يتعلق بأفعاله التي يتقرَّب بها إلى الله فهو توحيد الألوهيَّة.

فعلى هذا لا تعارض بين قولنا: التوحيد إفراد الله، وبين قولنا: إنه ينقسم إلى ثلاثة، لأن التقسيم محلُّه كيفيَّة توحيد العبد ربّه، وأوجه استحقاق الله له تعالى، إذ لم يقل أحد من المسلمين: إن الآلهة ثلاثة، والشيء الواحد مع كونه واحدا قد ينقسم إلى أكثر من واحد باعتبارات مختلفة، كصلاة الخوف، =

= فهي صلاة واحدة وتنقسم إلى خمسة أقسام باعتبار كيفيَّاتها، وهذا لا ينكره إلا مكابر ومعاند، على أنَّ المنكر لتقسيم التوحيد لو تأمَّل كتب أئمَّته كجوهرة التوحيد للباجوري لوجد تقسيم ذلك.

وللعلماء مسالك في تقسيم التَّوحيد، فمنهم من يقسِّم إلى ثلاثة أقسام:

١) توحيد الربوبيَّة: وهو إفراد الله بأفعاله كالخلق والرِّزق والإحياء وغير ذلك.

٢) توحيد الألوهيَّة: وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة، أو بأفعال العباد التي يتقربون بها إلى الله سبحانه.

٣) توحيد الأسماء والصِّفات: وهو إفراد الله سبحانه وتعالى بما سمَّى الله به نفسه ووصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو ما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

ومنهم من حذف القسم الثالث لدخوله في القسم الأول، كالصنعاني في تطهير الاعتقاد، يقول الشيخ العلامة الفوزان في الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص/ ١٤٢): "وهذا القسم قد جحده الجهمية وتلاميذهم من المعتزلة والأشاعرة، وهو في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية، لكن لما كثر منكروه وروجوا الشبه حوله؛ أفرد البحث، وجعل قسما مستقلاً."

ومن العلماء من قسَّم إلى قسمين كما في بعض نقولات شيخ الإسلام وابن القيم والحافظ الحكمي إلى قسمين:

١) توحيد المعرفة والإثبات، ويقال: التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي وهو المتضمن إثبات صفات الكمال لله عزَّ وجلَّ وتنزيهه فيها عن التَّشبيه والتَّمثيل وتنزيهه عن صفات النَّقص، وهو توحيد الربوبيَّة والأسماء والصفات.

٢) توحيد الإرادة والطلب والقصد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وتجريد محبَّته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه، وألا يجعل له عدلا في شيء من الأشياء وهو توحيد الألوهيَّة.

ومنهم قسَّم إلى أربعة، نظرا إلى كلمة التوحيد بدون إضافتها إلى لفظ الجلالة، وزادوا توحيد المتابعة، أي: متابعة النبيّ ﷺ ، وهذا من باب توحيد المرسَل، لا المرسِل. وأشار إلى هذا ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٣٧٨)، وابن أبي العز في شرح الطحاوية.

قال شيخ الإسلام: " يُحَقِّقُ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ وَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ؛ وَإِنْ كَانَتْ الْإِلَهِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الرُّبُوبِيَّةَ؛ وَالرُّبُوبِيَّةُ تَسْتَلْزِمُ الْإِلَهِيَّةَ."

انظر لوامع الأنوار (١/ ٥٦) والدِّين الخالص (١/ ٢٠٣) ومجموع الفتاوى (١٠/ ٢٨٤) ومدارج السالكين (٢/ ٣٧٨) ومجموع فتاوى ابن باز (٢/ ٧١) ومعارج القبول للحافظ الحكمي (١/ ١٢١) =

كما أن الصَّلاة لا تسمَّى صَلاة [(١)] إلا مع الطَّهارة؛ [(٢)]

= والقول السديد للسعدي (ص/ ١٧) والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص/ ١٤٢) ومذكرة التوحيد للعلامة عبد الرزاق عفيفي (ص/ ٢٧).

(١) قد يقال: إنَّ الصَّلاة هي عبادةٌ ذاتُ أقوال وأفعال، مفتتحة بالتَّكبير، مختتمة بالتَّسليم، فمن وجدناه يصلي قلنا: إنه صلَّى بغض النظر عن طهارته، ومراد المصنَّف ظاهر وهو أنَّ الصلاة لا تكون مقبولة عند الله جل وعلا إلا بالطهارة، وأما التسمية فشيء آخر، وقد ورد في حديث المسيء صلاته أن النبي ﷺ قال له: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» أي: صلاة صحيحة مقبولة، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

ثم وقفت على كلام للشيخ الدكتور سعد الشثري، قرَّرَ ما قررته هنا في الموضعين، ونصُّ كلامه: "ولو صلى إنسان بدون طهارة، قيل: هذه صورة صلاة، لكنها ليست صحيحة شرعا، ويؤاخذ الإنسان عليها، إذا صلاها بغير وضوء متعمدا، لأنه قد يكون قد وقع في كبيرة من الكبائر، لكنها تسمى عبادة، إذ لو لم تسم عبادة لما ترتبت عليها العقوبة، وهكذا من عبد غير الله، يقال: هذه عبادة، ولذلك توجهنا له باللوم: كيف تعبد أحدا سوى الله؟! ومراد المصنف هنا الاصطلاح الشرعي الذي يقبل عند الله عز وجلَّ."
انظر شرح القواعد الأربع للدكتور سعد الشثري (ص/ ٢٢٦).

(٢) لأنها شرط من شروط الصلاة، لقول الله جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [سورة المائدة:٦].

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ صَلاَةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ».
والطَّهارة لُغةً: النَّظافة. طَهُرَ الثَّوبُ من القَذَر، يعني: تنظَّفَ.
وفي الشَّرع: تُطلقُ على معنيين:
١) الطهارة المعنوية، وهو طهارة القلب من الشِّرك في عبادة الله، والغِلِّ والبغضاء لعباد الله المؤمنين، وهي أهمُّ من طهارة البدن.
٢) الطهارة الحسية، وهو رفع الحدث الأكبر والأصغر، وهذا هو مراد المصنِّف هنا. =

فإذا دخل الشِّرك (١)

=

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَام: عَمَّا تَجِبُ لَهُ الطَّهَارَتَانِ: الْغُسْلُ وَالْوُضُوءُ؟ .
فَأَجَابَ: ذَلِكَ وَاجِبٌ لِلصَّلَاةِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ فَرْضُهَا وَنَفْلُهَا.
انظر الشرح الممتع (١/ ٢٥) ومجموع الفتاوى (٢١/ ٢٦٨).

(١) مادَّة (شرك) تفيد في اللغة أن يكون الشيء بين اثنين، لا ينفرد به أحدهما.
يقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [سورة طه:٣٢].
أي: اجعل شريكي فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾ [سورة الزمر:٢٩].
واصطلاحا: الشرك عند أهل السنَّة هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، لقول الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [سورة الشعراء:٩٨].
قال ابن القيم: " حقيقة الشرك هو التشبّه بالخالق والتشبيه للمخلوق به."
وهذه التسوية التي حصلت من المشركين إنما كانت في بعض الأشياء التي يستحقها الرب جلَّ وعلا، لا في جميعها، إذ لم يوجد أحد سوَّى بين الله وبين مخلوق في جميع الأشياء.
قال شيخ الإسلام: "وأصل الشِّرك أَن تعدل بِاللَّه تَعَالَى مخلوقاته فِي بعض مَا يسْتَحقّهُ وَحده؛ فَإِنَّهُ لم يعدل أحد بِاللَّه شَيْئا من الْمَخْلُوقَات فِي جَمِيع الْأُمُور، فَمن عبد غَيره أَو توكل عَلَيْهِ فَهُوَ مُشْرك بِهِ."

وَهَذه التَّسوِية تنقَسم إِلَى ثلاثة أقسام:

١) تسوية تقع في القلب والنيات، فالأصل فيه أنه شرك أكبر مخرج من الملَّة، وقد يكون أصغر كيسير الرياءِ والسمعة واعتقاد سببية ما ليس بسبب ونحوها فأصغر.
٢) تسوية تقع في الأفعال، فهذه قد تكون أكبر كدعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وقد تكون أصغر كلبس الحلقة والخيط لرفع البلاءِ أو دفعه، وكتعليق التمائم خوفاً من العين، على أنها سبب.
٣) تسوية تقع في الألفاظ والكلمات، أي: أن يستخدم الألفاظ الخاصة بالله جلَّ وعلا في المخلوق، كالحلف بغير الله، وهذا شرك أصغر، وإن صاحبه الاعتقاد صار أكبر.
قال ابن القيم: " وَمِنَ الشِّرْكِ بِهِ سُبْحَانَهُ الشِّرْكُ بِهِ فِي اللَّفْظِ، كَالْحَلِفِ بِغَيْرِهِ".

أقسام الشِّرك:

للشِّرك تقسيمات باعتبارات مختلفة، فمنها:

الأوَّل: تقسيم الشِّرك باعتبار حكمه:

الشرك بهذا الاعتبار ينقسم إلى قسمين:
١) الشرك الأكبر هو كلُّ شرك أطلقه الشَّارع وهو يتضمن خروج الإنسان عن دينه.

=

٢) الشرك الأصغر هو كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، وجاء في النصوص تسميته شركا.

والفرق بينهما من وجوه:

أ) أنَّ ألأكبر لا يغفره الله لصاحبه إلا بالتوبة، بخلاف الأصغر على الصحيح.

ب) أن الأكبر محبط لجميع الأعمال بخلاف الأصغر.

ت) أن الأكبر مخرج من الملَّة الإسلامية بخلاف الأصغر.

ث) أن الأكبر يحل النفس والمال بخلاف الأصغر.

ج) أن الأكبر يخلد صاحبه في النَّار، بخلاف الأصغر.

ويجتمعان في شيئين:

١) أنهما من أكبر الكبائر.

٢) أنه يستحق صاحبهما الوعيد.

الثَّاني: تقسيم الشِّرك باعتبار ما يقع فيه:

فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١) شرك الألوهيَّة، وهو اتخاذ مع الله إلها، يصرف لهم العبادات، سواء كان هذا المعبود صنما، أو وليا، أو نبيا، أو جنيا.

٢) شرك في الربوبيَّة، وهو اعتقاد مساو لله يفعل مثل أفعال الله الخاصة به، كالرزق والإحياء والإماتة وتصرف الكون.

٣) شرك في الأسماء والصِّفات وهو اعتقاد مساو لله في أسمائه وصفاته على الوجه الذي اختص به، وهو الكمال المطلق، وهذا هو شرك التمثيل.

وأمَّا شرك التعطيل فهو تعطيل ذات الرب جلَّ ذكره عن أسمائه وصفاته وكماله المقدَّس.

وقد أفتي شيخنا يحيى حفظه أن الشرك الذي يكون في الأسماء والصفات لا يكون أصغر، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الثَّالث: تقسيم الشِّرك باعتبار ظهوره وخفائه:

ينقسم بهذا الاعتبار إلى قسمين:

١) الشرك الجلي، وهو الجلي واضح من جهة ما يقوم به من الظاهر أو من جهة الحكم الشَّرعي.

٢) الشِّرك الخفي هو عكس الجلي.

مسالة: كيفيّة التخلص من الشّرك:

في العِبادة فسدت، (١) كالحَدث (٢) إذا دخل في الطَّهارة أفسدها، (٣)

= قال شيخ الإسلام: "وَطَرِيقُ التَّخَلُّصِ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ كُلِّهَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وَلَا يَحْصُلُ الْإِخْلَاصُ إلَّا بَعْدَ الزُّهْدِ وَلَا زُهْدَ إلَّا بِتَقْوَى وَالتَّقْوَى مُتَابَعَةُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ."
انظر الشرك في القديم والحديث (١/ ١٤١) وحاشية ابن قاسم على كتاب التَّوحيد (ص/ ١٥) الداء والدواء (ص/ ١٣٤) (ص/ ٢١٣) والاستقامة لابن تيمة (١/ ٣٤٤) والمدارج (١/ ٣٦٨) وفتح المجيد (ص/٦٤٩) والقول المفيد (٢/٩٨) ومجموع فتاوى ابن باز (١/٤٣) وفتاوى الجنة الدائمة (١/ ٥١٧) وفتاوى ابن عثيمين (٢/ ٢٠٢) ومجموع ابن تيمية (١/ ٩٤) وفتاوى شيخنا العلامة الحجوريّ (٢/ ٤).

(١) أي: بطلت وذهب أجرها، وحبط العمل، ولا تكون مقبولة، لأن الله لا يقبل مع الشِّرك والكفر عملا، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة التوبة:٥٤]. ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنعام:٨٨].

والآيات في هذا الباب كثيرة، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(٢) الحَدَثُ: وصفٌ قائمٌ بالبدن يمنع من الصَّلاة ونحوها مما تُشْتَرَطُ له الطَّهارةُ. انظر الشرح الممتع (١/ ٢٥).

(٣) مراد المصنف من هذا هو القياس بشيء متفق عليه، وذلك لأن المخاصم يسلم على أن الحدث كالخارج من السبيلين إذا دخل في الطهارة فسدت، فكذلك الشرك يفسدها.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: "وهذا تقريب لهذه المسألة العظيمة، وإلا فإن شرط الإخلاص والتوحيد لقبول العبادة أعظم من شرط الطهارة لقبول الصلاة، لأنه إذا صلى محدثا متعمدا فإن في تكفيره خلافا بين أهل العلم، وأما إذا عبد الله مشركا فإنه بالإجماع ليس مقبول العبادة، وبالإجماع هو كافر، لأنه أشرك بالله الشرك الأكبر الذي لا يقبل معه عمل.".
قلت: يشهد لذلك ما قاله العلامة ابن القيم: "التَّوْحِيد ألطف شَيْء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شَيْء يخدشه ويدنّسه ويؤثّر فِيهِ، فَهُوَ كأبيض ثوب يكون يؤثّر فِيهِ أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدا أدنى شَيْء يُؤثر فِيهَا، وَلِهَذَا تشوِّشه اللحظة، واللفظة، والشهوة الْخفية، فَإِن بَادر صَاحبه وَقلع ذَلِك الْأَثر بضده، وَإِلَّا استحكم وَصَارَ طبعا يتعسّر عَلَيْهِ قلعه". =

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة التوبة:١٧]. (١)

فإذا عرفتَ (٢) أن الشِّرك إذا خالط العبادة أفسدها، (٣) وأحبط العمل، (٤)

= انظر شرح القواعد الأربع للشيخ صالح آل الشيخ (ص/ ٢١) والفوائد لابن القيم (ص/ ١٩٥).

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره (ص/ ٣٣١): "يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ وعدم الإيمان، الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله، والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة؟!!.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾."

(٢) بمعنى علمت وأيقنت.

(٣) قد تقدم معنى إفساده.

(٤) أي: جميع العمل، وذلك إذا شركا أكبر، أو ذلك العمل المعين الذي يخالطه، وذلك إذا كان شركا أصغر، وإحباط العمل هو ذهاب أجره كأنه لم يعمل شيئا، يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزمر:٦٥].

وحبوط العمل على قسمين:

الأوَّل: حبوط كلِّي، وهذا هو مراد المصنف، ولا يكون إلا بالكفر والشِّرك.

والثَّاني: حبوط جزئي، وهو يكون بالشرك والكفر الأصغرين وبعض الكبائر.

وقال الإمام ابن العربي: "الْحَبَطُ عَلَى قِسْمَيْنِ: حَبَطُ إِسْقَاطٍ، وَهُوَ إِحْبَاطُ الْكُفْرِ لِلْإِيمَانِ وَجَمِيعِ الْحَسَنَاتِ، وَحَبَطُ موازنة، وَهُوَ إِحْبَاطُ الْمَعَاصِي لِلانْتِفَاعِ بِالْحَسَنَاتِ عِنْدَ رُجْحَانِهَا عَلَيْهَا إِلَى أَنْ تَحْصُلَ النَّجَاةُ فَيَرْجِعَ إِلَيْهِ جَزَاءُ حَسَنَاتِهِ".

انظر الفتح للحافظ ابن حجر (٢/ ٣٢).

وصار صاحبه من الخالدين في النَّار، (١)

عرفت أن أهمَّ ما عليك (٢) معرفة ذلك، (٣) لعل الله أن يخلِّصك (٤) من هذه الشَّبكة، (٥) وهي الشِّرك بالله، (٦)

---

(١) لقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة المائدة:٧٢]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [سورة البينة:٦].

(٢) أي: ما يجب عليك.

(٣) أي: معرفة الشرك وأنواعه، والعبادة وأنواعها، أي: أن تعرف حق الله على العباد، وتصرف هذا الحق لله على علم وبصيرة، دون أن تصرفه لغير الله. انظر شرح القواعد الأربع للجامي (ص/ ٤٢).

(٤) أي: ينجيك، يقال: خلصه من كذا، إذا نجاه.

(٥) الشبكة هي شركَة الصياد فِي الْبر وَالْبَحْر، وَأكْثر مَا تتَّخذ من الْخَيط المشبك، وكل متداخل متشابك يُقَال: شبكة المواصلات، وشبكة الكهرباء، وَنَحْو ذَلِك، والمصنف يشير بهذا إلى أن الشرك له حبائل، كالشبكة، قد يقع الإنسان فيه وهو لا يشعر، وسبب الوقوع فيه هو عدم معرفة الرب وتقديره، وسوء الظن بالله.

قال العلامة المقريزي: "واعلم أنك إذا تأمّلت جميع طوائف الضّلال والبدع، وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين: أحدهما: الظّن بالله ظنّ السّوء، ولم يقدروا الرّب حقّ قدره".

انظر المعجم الوسيط مادة (شبك) وتجريد التوحيد (ص/ ٣٣).

(٦) قال الشيخ العلامة ابن إبراهيم مفتي الديار السُّعوديَّة سابقا:

"ومن أسبا الخلوص من هذا الداء العضال التفتيشُ عن مبادئه ووسائله وذرائعه خشية أن تقع فيه وأنت لا تشعر، وكان حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني".

ومن أسباب التخلص من هذا صدقُ الابتهال إلى الله وسؤاله التثبيت، وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء: "اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك"، كما ابتهل الخليل عليه السلام إلى الله فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾. شرح كشف الشبهات (ص/ ٤٢-٤٣).

الذي قال الله تعالى فيه:(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [سورة النساء:٤٨].(٢)

---

(١) أي: في بيان حكمه وخطورته، وأشار بهذه الفقرة إلى أن الشرك يتميز بثلاث خصائص:

الأول: أنه لا يُغفر. والثاني: أنه موجب للخلود في النار. والثالثة: أنه يحبط جميع الأعمال.

انظر شرح القواعد الأربع للبراك (ص/ ١٢).

(٢) قال الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٢٤٣): "ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ الْإِشْرَاكَ بِهِ وَأَنَّهُ يَغْفِرُ غَيْرَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَأَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا.

وَذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ: أَنَّ مَحَلَّ كَوْنِهِ لَا يَغْفِرُ الْإِشْرَاكَ بِهِ إِذَا لَمْ يَتُبِ الْمُشْرِكُ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ تَابَ غَفَرَ لَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ الْآيَةَ، فَإِنَّ الْاسْتِثْنَاءَ رَاجِعٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ لِأَنَّ مَعْنَى الْكُلِّ جُمِعَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾."

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٦٠): "والمقصود: أن الشِّرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له، وأشدها مقتا لديه. ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدا، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين."

وذلك [١] بمعرفة أربع قواعدَ [٢] ذكرها الله تعالى في كتابه: [٣]



(١) أي: تخلصك من شبكة الشِّرك إنما يقع بمعرفة أربع قواعد.

قال ابن القيم: "وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره، أو شر منه، أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرا، والمنكر معروفا، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويبدع بتجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا، والله المستعان.".

انظر شرح القواعد للعلامة الجامي (ص/ ٤٦) والمدارج (١/ ٣٥١).

(٢) تقدم معنى القواعد في أول الكتاب.

(٣) وهذا يسمى استقراء واستنتاج من القرآن. قاله العلامة الجامي في شرحه (ص/ ٤٦).

[القَاعِدَةُ الأُولَى (١)

مجرّدُ الإقرار بالرُّبُوبيَّة لا يُدخل المرء فِي الإِسلامِ]

(١) نصَّ على هذه القاعدة الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن قتيبة، وابن كثير، والمصنف، والشوكاني، والمقريزي، وعبد الرحمن بن حسن، وابن أبي العز، والسعدي، والشنقيطي، والهراس، وابن باز، وابن عثيمين والجامي، وكثير من المفسرين عند آيات إقرار كفار قريش للربوبية وغيرهم من أهل العلم.

قال الطبري: "كَانَ مَا كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ الْعِلْمِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مُبْدِعُ الْخَلْقِ وَخَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، نَظِيرَ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ."
وقال ابن قتيبة: " فَلَسْتُ وَاجِدًا أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ مُقِرٌّ بِأَنَّ لَهُ صَانِعًا وَمُدَبِّرًا، وَإِنْ سَمَّاهُ بِغَيْرِ اسْمِهِ، أَوْ عَبَدَ شَيْئًا دُونَهُ، لِيُقَرِّبَهُ مِنْهُ عِنْدَ نَفْسِهِ، أَوْ وَصَفَهُ بِغَيْرِ صِفَتِهِ، أَوْ أَضَافَ إِلَيْهِ مَا تَعَالَى عَنْهُ عُلُوًّا كَبِيرًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}."
وقال شيخ الإسلام: "فَأَمَّا مَنْ اعْتَقَدَ فِي اللَّهِ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقُهُ وَهُوَ مَعَ هَذَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ بِرَبِّهِ مُتَّخِذٌ مِنْ دُونِهِ إلَهًا آخَرَ فَلَيْسَتْ الْإِلَهِيَّةُ هُوَ الْخَلْقَ أَوْ الْقُدْرَةَ عَلَى الْخَلْقِ أَوْ الْقِدَمَ كَمَا يُفَسِّرُهَا هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدَعُونَ فِي التَّوْحِيدِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إذْ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ شَهِدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ مِنْ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لَمْ يَكُونُوا يَشُكُّونَ فِي أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ فَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهِيَّةَ لَكَانُوا قَائِلِينَ إنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ فَهَذَا مَوْضِعٌ عَظِيمٌ جِدًّا يَنْبَغِي مَعْرِفَتُهُ".
انظر تفسير الطبري (١/ ٣٩٤) والوجيز للواحدي (ص/ ٨٥٠) وتفسير السمعاني (٤/ ١٩٢) وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٧٠) وتفسير ابن كثير (٦/ ١٨٢) وتفسير السعدي (ص/ ٧٧٠) وتأويل مختلف الحديث (ص/ ٢٠٠) ومجموع فتاوى ابن تيمية (٢/ ٣٧-٣٨) (٣/ ٩٧) (١١/ ٥٢٠) والفتاوى الكبرى (٦/ ٥٦٦) ومنهاج السنة (٥/ ٣٢٧) ودرء التعارض (٩/ ٣٤٥) وعدة الصابرين (ص/ ٤٦) وطريق الهجرتين (ص/٩٨) والدرر السنية (١/ ١٢٥) وأضواء البيان (٢/ ٢١٨) وقرة عيون الموحدين (ص/ ١٩٣) ودعوة التوحيد للهراس (ص/ ٤٠) ومجموع فتاوى ابن باز (٢٨/ ١٨٦) وشرح عقيدة أهل السنة لابن عثيمين (ص/ ٢٣) وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص/ ٩٤) وتجريد التوحيد (ص/ ٢٠-٢١).

القاعدة الأولى: [(١)]

(١) قال العلامة النجمي: "مقتضى هذه القاعدة أن توحيد الرّبوبية لا يدخل به أحد في الإسلام، فمن أقر بتوحيد الربوبيَّة وأقر بأن الله هو الخالق وهو الرازق وهو المدبر وهو المحيي، وهو المميت، وهو الذي يُصح ويُمرض، والذي يغني ويفقر، والذي يسعد ويشفى، ومن أقر بهذا لا يدخله إقراره به في الإسلام."

وقال العلامة صالح آل الشيخ: "مراد الشيخ رحمه الله من هذه القاعدة المهمة أن هذه القاعدة يقينيَّة من حال الكفار، وحال المشركين في أنهم مقرون بتوحيد الربوبية، ومع هذا لم ينفعهم هذا الإقرار، ولم يدخلهم في الإسلام، لأنهم أشركوا مع الله جلَّ وعلا آلهة أخرى، وعبدوا آلهتهم الباطلة، وقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [سورة ص:٥]. ".

وقال الإمام المعلمي في العبادة: "ومن العجائب أنك تجد في هذا العصر كثيرًا من طلبة العلم - إن لم أقل من العلماء - يتوهَّمون أن المشركين يعتقدون في الأصنام وغيرها أنها واجبة الوجود قادرة على كلّ شيء، خالقة، رازقة، مدبِّرة للعالَم."

ومقصود المصنف من ذكر هذه القاعدة بيان أن المطلوب من كل أحد وبه يكون مسلما هو الإقرار بالألوهية، وإفراد العبادة لله جلَّ وعلا، وأنه هو التوحيد الواجب على العبد، وينجيه من عذاب الله الدائم.

قال شيخ الإسلام: "وهذا التوحيد توحيد الربوبية العامة كان المشركون يقرون به فهو وحده لا ينجي من النار ولا يدخل الجنة بل التوحيد المنجِّي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله بحيث يقر بأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة دون ما سواه وأن محمدا رسوله".

وقال أيضا: "فمجرد توحيد الربوبية قد كان المشركون يقرون به، وذلك وحده لا ينفع.".

وقال أيضا: "وَأَمَّا التَّوْحِيدُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]."

وقال العلامة الشوكاني: "قد نطقت الآيات القرآنية، وشهدت الأخبار النبوية، وأجمعت الأمة المحمدية على وجوب توحيد الله- سبحانه وتعالى- بالعبادة".

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: "وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده".

انظر التعليقات البهية على الرسائل العقديَّة (ص/ ١٦٤) وشرح القواعد الأربع للعلامة الجامي =

أن تعلم أن الكفَّارَ [(١)] الذين قاتلهم رسول الله ﷺ [(٢)] مُقِرُّون [(٣)]

= (ص/ ٥٢) وشرح القواعد الأربع للشيخ صالح (ص/ ٧٢) وآثار المعلمي (٢/ ٣٤٢) والرد على البكري (١/ ٣٥٨) والفتاوى الكبرى (٦/ ٥٦٤) ودرء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٥) ومجموع الفتاوى (٢/ ١٢٨) والجواب الصحيح (٦/ ٢٧) والفتح الرباني للشوكاني (١/ ١٢٦) وتيسير العزيز الحميد (ص/ ١٧).

(١) أي: كفار قريش الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ. انظر الدرر السنية (٢/ ٢٧).

(٢) بأمر من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الأنفال: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة التوبة: ٣٦].

وفي الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ».

(٣) أَيْ هُمْ مُعْتَرِفُونَ ومثبتون ومذعنون بِأَنَّهُ الْفَاعِلُ للخلق والرزق وغيره من الربوبية، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ هُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ.

وقول كثير من علماء الاعتقاد أن كفار قريش وغيرهم ممن كانوا في زمن النبي ﷺ كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، يحمل والله أعلم على أصله، أو على أكثر أفراده، وإلا فهم كانوا يشركون في بعض أفراد الربوبيَّة، إذ أنَّ من أقرَّ جميع أفراد الربوبيَّة فلا بدَّ أن يوحد الله في ألوهيته، ومن أشرك في الألوهية فقد أشرك في بعض أفراد الربوبيَّة، ولا محالة.

ومن شركهم في الربوبيَّة أنهم كانوا يرجون جلب المنفعة ودفع المضرة من آلهتهم، ويسندون المطر إلى الكواكب، على أنها فاعلة مدبرة، وهذه عقيدة الجاهلية كما ذكره الشافعي والنووي، ففي الصحيحين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ.» =

بأنَّ الله تعالى هو الخالق (١) الرَّازق (٢) المحيي (٣) المميت (٤) المدبر لجميع الأمور، (٥) وأنَّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام. (٦)

= قال شيخ الإسلام: "فَالْكُفَّارُ الْمُشْرِكُونَ مُقِرُّونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَيْسَ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ مَنْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا مُسَاوِيًا لَهُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، هَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ قَطُّ، لَا مِنْ الْمَجُوسِ الثنوية، وَلَا مِنْ أَهْلِ التَّثْلِيثِ، وَلَا مِنْ الصَّابِئَةِ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْمَلَائِكَةَ، وَلَا مِنْ عُبَّادِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا مِنْ عُبَّادِ التَّمَاثِيلِ وَالْقُبُورِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ - وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا مُشْرِكِينَ مُتَنَوِّعِينَ فِي الشِّرْكِ - فَهُمْ مُقِرُّونَ بِالرَّبِّ الْحَقِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَجَمِيعِ أَفْعَالِهِ؛ وَلَكِنَّهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ بِهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ بِأَنْ يَعْبُدُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى يَتَّخِذُونَهَا شُفَعَاءَ أَوْ شُرَكَاءَ؛ أَوْ فِي رُبُوبِيَّتِهِ بِأَنْ يَجْعَلُوا غَيْرَهُ رَبَّ بَعْضِ الْكَائِنَاتِ دُونَهُ مَعَ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُ رَبُّ ذَلِكَ الرَّبِّ وَخَالِقُ ذَلِكَ الْخَلْقِ."

وقال أيضا: "لَكِنْ الْمُتَكَلِّمُونَ إنَّمَا انْتَصَبُوا لِإِقَامَةِ الْمَقَايِيسِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذَا مِمَّا لَمْ يُنَازِعْ فِي أَصْلِهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَإِنَّمَا نَازَعُوا فِي بَعْضِ تَفَاصِيلِهِ كَنِزَاعِ الْمَجُوسِ والثنوية وَالطَّبِيعِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ ضُلَّالِ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ يَدْخُلُ فِيهِمْ ".

انظر تفسير ابن كثير (٦/ ١٨٢) وشرح مسلم للنووي (٢/ ٦٠) ومجموع الفتاوى (٢/ ٣٧-٣٨) (١١/ ٥١).

(١) الخالق اسم من أسماء الله جلَّ وعلا، ومعناه الموجد للمخلوقات من عدم.

(٢) في لسان العرب لابن منظور (١٠/ ١١٥): "الرازقُ والرَّزَّاقُ: فِي صِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى لأَنه يَرزُق الْخَلْقَ أَجمعين، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الأَرْزاق وأَعطى الْخَلَائِقَ أَرزاقها وأَوصَلها إِلَيْهِمْ."

(٣) هو من باب الأخبار، ولم يثبت كونه اسما لله جل وعلا، ومعناه الذي يحيي من يشاء من خلقه من العدم وعند البعث، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [سورة يس: ٧٩].

(٤) هو من باب الأخبار، ومعناه ومعناه الذي يميت من شاء من خلقه، إماتة حسية أو معنوية.

(٥) قال الإمام البيهقي: "هُوَ الْعَالِمُ بِأَدْبَارِ الْأُمُورِ وَعوَاقِبِهَا، وَمُقَدِّرُ الْمَقَادِيرِ وَمُجْرِيهَا إِلَى غَايَاتِهَا، يُدَبِّرُ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ، وَيُصَرِّفُهَا عَلَى مَشِيئَتِهِ.". انظر الاعتقاد للبيهقي (ص/ ٥٩).

(٦) أي: لم يكونوا به مسلمين، لأنهم جحدوا توحيد العبادة والألوهية، وهو توحيد الطلب والقصد، ووقعوا في الشركيات، فدلَّ هذا على أن مجرد الإقرار بالروبية لا يكفي في الدخول في الإسلام، وإن كان لا بدَّ =

والدليل [(١)] قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ

= منه، وذلك لأن توحيد الربوبية مفطور في النفوس، فليس من الخليقة من ينكر أصله إلا عنادا، ولو كان الشخص يدخل به الإسلام لصار إبليس مسلما، وهو القائل كما حكى الله عنه، (ربِّ) (ربِّ) مع أنه من الكافرين، كما بيَّنه الله في كتابه، وبهذا يعلم خطأ بعض الجهال المرتابين الذين يقولون: "إبليس ما كفرش، لأنه يقول: يا رب."

قال ابن القيم: " فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته."

قال بعضهم: وأشعارهم مليئة بالإقرار بهذا الأمر، أعني توحيد الربوبية، ومن ذلك قول زهير ابن أبي سلمى:

فـلا تكـتُمُن اللـه مـا فـي نفوسـكم ... ليخفــي ومهمــا يكــتم اللــه يعلــم
يُــؤخر فيُوضَــعْ فـي كتـاب فيُـدَّخَر ... ليـــوم الحســاب أو يعجــل فينــتقم

ومنه قول حاتم الطائي:

أمــا والــذي لا يعلــم الســر غيــره ... ويحيــي العظــام البــيض وهــي رمــيم

قال الصنعاني: "إذا تقرَّر عندك أنَّ المشركين لَم ينفعهم الإقرارُ بالله مع إشراكهم في العبادة، ولا يغني عنهم مِن الله شيئاً، وأنَّ عبادتَهم هي اعتقادُهم فيهم أنَّهم يَضرُّون وينفعون، وأنَّهم يقرِّبُونهم إلى الله زلفى، وأنَّهم يَشفعون لهم عند الله تعالى، فنَحَروا لهم النَّحائِر، وطافُوا بهم ونذروا النذور عليهم، وقاموا متذلِّلين متواضعين في خدمتهم وسجدوا لهم، ومع هذا كلِّه فهم مقرُّون لله بالربوبية وأنَّه الخالقُ، ولكنَّهم لَمَّا أشركوا في عبادته، جعلهم مشركين ولَم يَعْتَد بإقرارهم هذا؛ لأنَّه نافاه فعلُهم، فلم ينفعهم الإقرارُ بتوحيد الربوبية، فمِن شأن مَن أقرَّ لله تعالى بتوحيد الربوبية أن يُفردَه بتوحيد العبادة، فإذا لَم يفعل ذلك فالإقرارُ باطل.".

انظر معنى لا إله إلا الله للحمد (ص/ ٢) وعدة الصابرين (ص/ ٤٦) وتطهير الاعتقاد (ص/ ٥٨).

(١) أي: على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون لله هذه الشهادة، وأنهم مقرون بتوحيد الربوبية، ولا يجحدونه.

قال الشيخ محمد أمين الشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٢١٨): "وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ =

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [سورة يونس: ٣١]. (١)

= وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يُنْقِذُ مِنَ الْكُفْرِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَعَهُ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ، أَيْ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾".

انظر الدرر السنية (٢/ ٢٧) وكشف الشبهات (ص/ ٥٨-٦١) مع حاشيتي.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٣٢): " يَحْتَجُّ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِاعْتِرَافِهِمْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى وحدانية الآلهة فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: مَنْ ذَا الَّذِي يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ الْمَطَرِ فَيَشُقُّ الْأَرْضَ شَقًّا بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا، وَحَدائِقَ غُلْباً، وَفاكِهَةً وَأَبًّا، أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، ﴿أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١] وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾ [يُونُسَ: ٣١] أَيْ: الَّذِي وَهَبَكُمْ هَذِهِ الْقُوَّةَ السَّامِعَةَ، وَالْقُوَّةَ الْبَاصِرَةَ، وَلَوْ شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ﴾ [الملك: ٢٣] الآية. وَقَالَ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] الآية.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيْ: بِقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَمِنَّتِهِ الْعَمِيمَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي ذَلِكَ، وأن الآية عامة لذلك كُلِّهِ.

وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} أَيْ: مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يسألون ﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ =

=

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فَالْمُلْكُ كُلُّهُ الْعُلْوِيُّ وَالسُّفْلِيُّ وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَلَائِكَةٍ وَإِنْسٍ وَجَانٍّ فَقِيرُونَ إِلَيْهِ عَبِيدٌ لَهُ خاضعون لديه.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي: وهم يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَرِفُونَ بِهِ.

﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أَيْ: أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِآرَائِكُمْ وَجَهْلِكُمْ".

مسألتان:

الأولى: هل المشركون اليوم يقرون بالربوبية؟

الجواب: أن المشركين اليوم لا يقرون بالربوبية، وذلك لأنهم يعتقدون أن أولياءهم يتصرفون في الكون، فيحيون من يريدون إحياءه، ويميتون من يريدون إماتته، ويطلبون منهم الأولاد والحاجات، ويعتقدون أنهم ينفعون ويضرون، ومن قرأ في كتبهم ككرامات الأولياء للشعراني يجد ذلك بوضوح.

قال العلامة عبد الرحمن بن حسن: " وقد وقع الشرك في الربوبية أيضا في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفا في الكون ونحو ذلك".

وقال العلامة محمد أمان الجامي: "والفرق بين القوم في عهد الجاهليَّة، واليوم أنه في السابق لا يوجد تصوف، فالتصوف هو الذي علم الناس في الآونة الأخيرة وجود أرباب يتصرفون في هذا الكون مع الله، تنص كتب الصوفية أو بعض كتبهم أن الصالحين والأولياء مشغولون بالخدمة في حياتهم، وإذا ماتوا تفرغوا ليتصرفوا في هذا الكون لأتباعهم.".

انظر قرة عيون الموحدين (ص/ ١٦٢) وشرح القواعد الأربع للجامي (ص/ ٤٨).

الثَّانية: ما الفائدة من الإقرار بالربوبيَّة؟

توحيد الربوبية حجة على من أنكر توحيد الألوهيَّة، وهو علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الإلهية هو توحيد الربوبية. قاله ابن القيم.

يقول العلامة السعدي: " فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك".

وقال شيخ الإسلام: "فَأَمَّا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي أَقَرَّ بِهِ الْخَلْقُ، وَقَرَّرَهُ أَهْلُ الْكَلَامِ؛ فَلَا يَكْفِي وَحْدَهُ، بَلْ هُوَ مِنْ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ".

وقال العلامة الجامي: "لكن إذا وقع الإنسان المنتسب إلى الإسلام المكثر من العبادة، إذا وقع في النوعين معًا بم تلزمه؟ فالمشرك ألزمته بتوحيد الربوبية لأنه موحِّد بربوبيته، وإذا وجد من يشرك بالله في ربوبيته وفي عبادته ما الحيلة؟ ".

انظر طريق الهجرتين (ص/ ٩٨) والمدارج (١/ ٤١٣) وتفسير السعدي (ص/ ٧٧٠) ومجموع الفتاوى لابن تيمية (١/ ٢٣) وشرح القواعد الأربع للجامي (ص/ ٥١).





[القَاعِدةُ الثَّانِيَة(١)
عِبادَةُ المُشرِكِين لآلهَتِهِم كَانَت مِن قَبِيل الوِسَاطَة وَالشَّفَاعَة]

القاعدة الثانية:(٢)

---

(١) نصَّ على هذه القاعدة جماعة من أهل العلم منهم قتادة، والطبري، والرَّازي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير، وابن عاشور، والشوكاني، والصنعاني، والمصنف في أول كشف الشبهات، والمقريزي، والشيخ سليمان بن عبد الله، والشيخ محمد بن مانع، والإمام الشنقيطي، والشيخ ابن حجر بن طامي، وأكثر المفسِّرين عند الآيتين اللتين سيذكرهما المصنِّف رحمه الله تعالى.

قال الرَّازي: "إِنَّهُمْ وَضَعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ عَلَى صُوَرِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَكَابِرِهِمْ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مَتَى اشْتَغَلُوا بِعِبَادَةِ هَذِهِ التَّمَاثِيلِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ الْأَكَابِرَ تَكُونُ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَظِيرُهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ اشْتِغَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ بِتَعْظِيمِ قُبُورِ الْأَكَابِرِ، عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّهُمْ إِذَا عَظَّمُوا قُبُورَهُمْ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ."

وقال شيخ الإسلام: "وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ جَعَلُوا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى مُقِرِّينَ بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ مَخْلُوقَةٌ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ وَيَتَقَرَّبُونَ بِعِبَادَتِهِمْ إِلَيْهِ".

وقال الشنقيطي: " وَاتِّخَاذِ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَسَائِطَ مِنْ أُصُولِ كُفْرِ الْكُفَّارِ."

انظر تفسير الطبري (٢٠/ ١٧٥) تفسير الرَّازي (١٧/ ٢٢٦) ومنهاج السنَّة (١/ ٩٧) ومجموع الفتاوى (١/ ١٢١-١٣٨) (١/ ١٥٥-١٥٩) والرد على البكري (ص/ ٥٢-٥٣) ومدارج السَّالكين (١/ ١٤٩) وحاشية كشف الشبهات للشيخ ابن مانع (ص/ ٣) وتيسير العزيز الحميد (ص/ ٢٢٩) وأضواء البيان (٦/ ٣٥٣) وتطهير الاعتقاد (ص/ ٣٦) وتطهير الجنان لابن حجر بن طامي (ص/ ٣٩) وتفسير ابن كثير (٧/ ٧٥) ودَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر للجرجاني (١/ ٣٣٠) والتَّحرير والتَّنوير لابن عاشور (٢٣/ ٣٢١) وفتح القدير للشوكاني (٤/ ٥١٥) وتجريد التوحيد للمقريزي (ص/ ١٤-١٥).

(٢) قال العلامة النجمي: "مقتضى هذه القاعدة أن الذين عبدوا غير الله لم يعبدوهم على أنهم هم الذين خلقوا هذا الكون، وهم الذين رزقوا من فيه، وهم الذين أحيوا الأحياء، وأماتوا الموتى، ولا أنهم هم الذين ينزلون الغيث من السماء، أو أنهم هم الذين ينبتون النبات من الأرض، كل ذلك ما كانوا يعتقدون =

أنهم **يقولون**: ما دعوناهم [١] وتوجَّهنا إليهم [٢] إلا لطَلَبِ القربة [٣]

= أنهم يتصرفون فيه، ولكن قولهم وحجتهم أنهم عبدوهم من أجل أن يشفعوا لهم عند الله".

هذا معنى هذه القاعدة.

وأما مقصود المصنِّف من ذكر هذه القاعدة هو ما ذكره النجمي بقوله: "إذا علمنا ذلك علمنا أن من كان يعبد في هذا الزمان يعبد غير الله، ويزعم أن فيه الولاية التي تجعله مقربا إلى الله أكثر من غيره، وأن الله لا يرد له شفاعة، ولا يرفض له طلبا، من اعتقد ذلك فإنه يعتبر مشركا شركا أكبر مخرجا من الملة."

وقال المصنف: "وأنه عز وجل نزه نفسه عن أن يتخذ من دونه ولي أو شفيع؛ بل أمرنا بالإخلاص، وهو: ألا يجعل له واسطة: فلا نستغيث، ولا نستعين إلا به".

والفرق بين قولهم (ليقرّبوننا إلى الله) وبين قولهم: (ليشفعوا لنا) أن الشافع لا يفعل شيئا إلا الشفاعة بينما الصنف الأول زعموا أنهم يقربونهم إلى الله، والشافع قد يستجاب له وقد لا يستجاب، بخلاف الذي يقرب، فإنه ينتفع به مطلقا حسب زعمهم.

انظر التعليقات البهية على الرسائل العقدية (ص/ ١٦٦-١٦٧) وشرح القواعد الأربع للجامي (ص/ ٦٥) والدرر السنية (٢/ ٣٤) وشرح القواعد الأربع للشثري (ص/ ٢٣٨).

(١) أي: دعاء المسألة والعبادة، أي: ما عبدناهم، ولا ناديناهم.

قال شيخ الإسلام: "وَكُلُّ مَوْضِعٍ ذَكَرَ فِيهِ دُعَاءَ الْمُشْرِكِينَ لِأَوْثَانِهِمْ فَالْمُرَادُ بِهِ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ الْمُتَضَمِّنُ دُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ فِي دُعَاءِ الْعِبَادَةِ أَظْهَرُ؛ لِوُجُوهِ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّ دُعَاءَهُمْ إيَّاهُمْ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى: فَسَّرَ هَذَا الدُّعَاءَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ وقَوْله تَعَالَى {إنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} . وقَوْله تَعَالَى ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فَدُعَاؤُهُمْ لِآلِهَتِهِمْ هُوَ عِبَادَتُهُمْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الرَّخَاءِ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الشَّدَائِدُ دَعَوْا اللَّهَ وَحْدَهُ وَتَرَكُوهَا وَمَعَ هَذَا فَكَانُوا يَسْأَلُونَهَا بَعْضَ حَوَائِجِهِمْ وَيَطْلُبُونَ مِنْهَا وَكَانَ دُعَاؤُهُمْ لَهَا دُعَاءَ عِبَادَةٍ وَدُعَاءَ مَسْأَلَةٍ".

انظر مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣).

(٢) أي: قصدنا إلى عبادتهم، وقيل: إن الدعاء تكون للعقلاء، والتوجه لغير العقلاء كالأصنام وغيرها، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(٣) أي: بأن يقربوننا إلى الله، وليكونوا وسيلة لنا عند الله، ليقضى حوائجنا عن طريقهم، فنعبدهم لأجل ذلك، فظنوا لجهلهم أَنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إلى الله بعبادة غيره أن ذلك يُقَرِّبُهُ إلى الله!! ويعتقدون أن ذلك يصح! =

والشَّفاعة لهم. [(١)] نريد من الله [(٢)] لا منهم، [(٣)] لكن بشَفَاعَتهم، والتقرّب إلى الله بهم. [(٤)]

= وهذا غاية الجهل، وقد أجمع المسلمون على أن هذا كفر بالله جلَّ وعلا.

قال الرازي في تفسيره (١٤/ ٣٥٠): "أَجْمَعَ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى أَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى كُفْرٌ سَوَاءٌ اعْتَقَدَ فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ كَوْنَهُ إِلَهًا لِلْعَالَمِ، أَوِ اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّ عِبَادَتَهُ تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ وَنِهَايَةُ التَّعْظِيمِ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِمَنْ يَصْدُرُ عَنْهُ نِهَايَةُ الْإِنْعَامِ وَالْإِكْرَامِ."

(١) أي: إنما عبدوهم ليشفعوا لهم عند الله في أمورهم وحاجاتهم التي يحتاجونها في الدنيا، أو في الآخرة إن أمكن حصولها، أو كان منهم من يعتقد القيامة.

قال ابن القيم رحمه الله: "والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشِّرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء".

وقال أيضا: "فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، فالشفاعة بإذنه من نعمة فهو المنعم بالشفاعة وهو المنعم بقبولها وهو المنعم بتأهيل المشفوع له؛ إذ ليس كل أحد أهلا أن يشفع له فمن المنعم على الحقيقة سواه."

انظر مدارج السالكين (١/ ٣٤٩) وشفاء العليل (ص/ ٣٧).

(٢) أي: لا نطلب من الصنم بذاته، أو من الشجر أو الصالح، وإنما نطلب من الله، فهو المقصود في الحقيقة.

(٣) أي: لا أريد قضاء الحوائج والنفع والضر إلا من الله.

(٤) قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: "هذا بعينه هو قصد المشركين ومرادهم، وهو الذي دعاهم إلى عبادة الأنبياء والصالحين والتعلق عليهم لأجل الجاه والشفاعة.

قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس: ١٨] [يونس: ١٨].

وأخبر تعالى عن قصدهم ومقالتهم، وأنكرها عليهم، وأخبر أنه لا يعلم وجود شفيع يشفع عنده لا في =

فدليل القربة [١] قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [سورة الزمر:٣]. [٢]

= السماوات ولا في الأرض، وما لا يعلمه فهو مستحيل الوجود، فنزه نفسه عن هذا الشرك المنافي للعبودية التي هي الحكمة في إيجاد البرية.

وقال تعالى: {﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]." . انظر مصباح الظلام (ص/ ٢٨١-٢٨٣).

فائدة: فَإِن قَالَ قَائِل: كَيفَ قَالُوا: ﴿هَؤُلَاءِ شفعاؤنا عِنْد الله﴾ وهم لَا يُؤمنُونَ بِالْبَعْثِ؟

الْجَواب: أَنهم كَانُوا يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شفعاؤنا عِنْد الله فِي مَصَالح مَعَايِشنَا فِي الدُّنْيَا.

وقيل: منهم من كان يقر بالبعث.

وقيل: منهم من كان عنده شك، فيقول: هم شفعاؤنا فِي الْآخِرَةِ عَلَى تَقْدِيرِ وَجُودِهَا، وَيَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْكَافِرِ: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، لِأَنَّ إِنَّ الشَّرْطِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى الشَّكِّ فِي حُصُولِ الشَّرْطِ.

انظر تفسير السمعاني (٢/ ٣٧٢) والفتح القدير للشوكاني (٢/ ٤٩٢) ودفع إيهام الاضطراب (ص/ ١١٤).

(١) أي: أنهم كانوا يتوسلون بهم، ولا يعبدون لذاتهم.

(٢) قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: مَا نَعْبُدُكُمْ أَيُّهَا الْآلِهَةُ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قُرْبَةً وَمَنْزِلَةً، وَتَشْفَعُوا لَنَا عِنْدَهُ فِي حَاجَاتِنَا."

وقال ابن كثير: "وَهَذِهِ الشُّبْهَةُ هي التي اعتمدها المشركون قَدِيم الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ وَجَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ بِرَدِّهَا وَالنَّهْيِ عَنْهَا وَالدَّعْوَةِ إِلَى إِفْرَادِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ هَذَا شَيْءٌ اخْتَرَعَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ فِيهِ وَلَا رَضِيَ بِهِ بَلْ أَبْغَضَهُ وَنَهَى عَنْهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلِ: ٣٦] ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ =

ودليل الشفاعة [(١)] قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة يونس:١٨]. [(٢)]

والشَّفَاعَة شَفَاعَتَانِ: [(٣)]

= رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٥] وَأَخْبَرَ أن الملائكة التي في السموات من الملائكة الْمُقَرَّبِينَ وَغَيْرِهِمْ كُلَّهُمْ عَبِيدٌ خَاضِعُونَ لِلَّهِ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنِ ارْتَضَى وَلَيْسُوا عِنْدَهُ كَالْأُمَرَاءِ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ يُشَفِّعُونَ عِنْدَهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فِيمَا أَحَبَّهُ الْمُلُوكُ وَأَبَوْهُ {فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النَّحْلِ: ٧٤] تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ علوا كبيرا."

انظر تفسير الطبري (٢٠/ ١٥٦) وتفسير ابن كثير (٧/ ٧٥).

(١) أي: أنهم كانوا يطلبون منهم الشفاعة.

(٢) قال الطبري: "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَيَعْبُدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ وَصَفْتُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ صِفَتَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّهُمْ شَيْئًا وَلَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْآلِهَةُ وَالْأَصْنَامُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] يَعْنِي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا رَجَاءَ شَفَاعَتِهَا عِنْدَ الله." انظر تفسير الطبري (١٢/ ١٤٢).

(٣) الشفاعة لغة: جعل الشيء اثنين، وهو ضد الوتر، يقال: جعلت الوتر شفعا، أي: اثنين، أو أربعة.
واصطلاحا: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

أركان الشفاعة.

الشفاعة لها أربعة اركان:

١) الشافع وهو الواسطة بين المشفوع له والمشفوع إليه.
٢) المشفوع إليه، وهو الذي بيده الخير من جلب منفعة أو دفع مضرة.
٣) المشفوع له وهو الذي يريد ذلك الخير.
٤) الطلب، وهو إما بجلب الخير، أو دفع الضر.

أقسام الشفاعة:

تنقسم الشفاعة إلى قسمين:

الأول: الشفاعة الأخروية، وهي التي تكون في أمور الآخرة، وهي تنقسم إلى قسمين أيضا: =

= أ) الشفاعة المنفية، وهي التي لم تتوفر فيها شروط الشفاعة.

ب) الشفاعة المثبتة، وهي التي توفرت فيها شروط الشفاعة التي ستأتي، وهي تنقسم إلى قسمين أيضا:

١) الشفاعة العامَّة وهي التي يأذن الله لعباده لمن شاء منهم أن يشفعوا لمن أذن الله بالشفاعة لهم، وتكون للأنبياء والملائكة والمؤمنين.

٢) الشفاعة الخاصَّة بالنبي ﷺ، وهي الشفاعة العظمى، وشفاعة أبي طالب، وشفاعة أهل الجنة للدخول فيها.

الثَّانية: الشفاعة الدنيويَّة وهي التي تكون في الأمور الدنيوية، وتنقسم إلى مشروعة، وممنوعة، فالمشروعة هي التي وجدت فيها شروط الشفاعة التي ستأتي، والممنوعة عكسها.

شروط الشفاعة

تقدَّم أن الشفاعة تنقسم إلى قسمين: دنيوية، وأخروية، ولكل منهما شروط.

أما الشفاعة الأخروية فشروطها ستَّة:

١) قدرة الشافع على الشّفاعة، بخلاف الأصنام لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الزخرف:٨٦].

٢) إسلام المشفوع له، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة غافر:١٨].

٣) الإذن للشافع، لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴿٢٥٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥٥].

٤) الرّضا عن المشفوع له، لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنبياء:٢٨].

٥) الرّضا عن الشافع، لقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النجم:٢٦].

٦) ألا يكون الشَّافع من اللاعنين، لما ثبت في صحيح مسلم عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وأمَّا **الشفاعة الدنيوية** فيشترط فيها أربعة شروط:

١) أن يكون المشفوع إليه حيًّا، وإلا فشرك.

٢) أن يكون المشفوع إليه حاضرا، أو كالحاضر كالتواصل، وإلا فشرك.

٣) أن يكون المشفوع إليه قادرا وإلا فلغو. =

شفاعة منفيَّة، وشَفَاعة مثبتة. (١)

= ٤) أن تكون في الخير، أي: في أمر مشروع أو مباح، وإلا فحرام كشفاعة حدّ من حدود الله.

من هم الشافعون؟

الشافعون كثر، والذي ثبت عن النبي ﷺ أنهم يشفعون هم أصناف أربعة:

١) الأنبياء.
٢) الصالحون.
٣) الملائكة.
٤) الأفراط

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

أقسام الناس في الشفاعة

الناس في أمر الشفاعة على ثلاثة أقسام:

١) صنف غلا في إثباتها وهم المشركون والقبوريون.
٢) صنف أنكر بعض الشفاعة كالمعتزلة والخوارج.
٣) صنف توسَّط، وهم أهل السنَّة والجماعة.

انظر القول المفيد لابن عثيمين (١/ ٢٣٠) والشفاعة للإمام الوادعي رحمه الله، ومجموع الفتاوى (١٤/ ٤١١) ومدراج السالكين (١/ ٣٤٠) والدرر السنية (٢/ ١٥٧-١٥٩) ومجموع رسائل وفتاوى ابن عثيمين (٢/ ٤٥-٤٦).

(١) أي: من الشفاعة ما جاء في القرآن الكريم نفيها وأنها لا تنفع، ومنها ما جاء فيه إثبات نفعها بشروطها.

سئل الشيخ: حمد بن ناصر، بن معمر، رحمه الله تعالى، عن الفرق بين الشفاعة المثبتة، والمنفية؟

فأجاب: "أما الفرق بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية، فهي مسألة عظيمة، ومن لم يعرفها لم يعرف حقيقة التوحيد والشرك؛ والشيخ رحمه الله تعالى عقد لها بابا في كتاب التوحيد، فقال: باب الشفاعة، وقول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ [سورة الأنعام آية: ٥١]، ثم ساق الآيات، وعقبه بكلام الشيخ تقي الدين.

فأنت راجع الباب، وأمعن النظر فيه، يتبين لك حقيقة الشفاعة، والفرق بين ما أثبته القرآن وما نفاه، وإذا تأمل الإنسان القرآن، وجد فيه آيات كثيرة في نفي الشفاعة، وآيات كثيرة في إثباتها؛ فالآيات التي فيها نفي الشفاعة، مثل قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ [سورة الأنعام آية: ٥١]، ومثل قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٤]، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ =

= مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة السجدة آية: ٤] ، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ [سورة الزمر آية: ٤٤] ، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الآيات التي فيها إثبات الشفاعة، فمثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [سورة النجم آية: ٢٦] ، وقوله: ﴿وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سورة سبأ آية: ٢٣] ، وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [سورة الأنبياء آية: ٢٨] ، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [سورة طه آية: ١٠٩] ، إلى غير ذلك من الآيات.

فالشفاعة التي نفاها القرآن هي التي يطلبها المشركون من غير الله، فيأتون إلى قبر النبي ﷺ أو إلى قبر من يظنونه من الأولياء والصالحين؛ فيستغيث به، ويستشفع به إلى الله، لظنه أنه إذا فعل ذلك شفع له عند الله، وقضى الله حاجته، سواء أراد حاجة دنيوية أو حاجة أخروية، كما حكى الله عن المشركين في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [سورة يونس آية: ١٨] ، لكن كان الكفار الأولون، يستشفعون بهم في قضاء الحاجات الدنيوية؛ وأما المعاد، فكانوا مكذبين به، جاحدين له؛ وأما المشركون اليوم فيطلبون من غير الله حوائج الدنيا والآخرة، ويتقربون بذلك إلى الله، ويستدلون عليه بالأدلة الباطلة، و ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة الشورى آية: ١٦] .

وأما الشفاعة: التي أثبتها القرآن، فقيدها سبحانه بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له؛ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا يأذن للشفعاء أن يشفعوا إلا لمن رضي قوله وعمل، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد.

وأخبر الرسول ﷺ أن أسعد الناس بشفاعته أهل التوحيد والإخلاص، فمن طلبها منه اليوم، حرمها يوم القيامة؛ والله سبحانه قد أخبر أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ وإنما تنفع من جرد توحيده، بحيث أن يكون الله وحده هو إلهه، ومعبوده؛ وهو سبحانه: لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا، كما قال تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر آية: ٣] .

فإذا تأملت الآيات، تبين لك أن الشفاعة المنفية هي التي يظنها المشركون، ويطلبونها اليوم من غير الله. وأما الشفاعة المثبتة فهي التي لأهل التوحيد والإخلاص. كما أخبر الرسول ﷺ أن شفاعته نائلة من مات من أمته، لا يشرك بالله شيئا، والله أعلم". انظر الدرر السنية (٢/ ١٥٧-١٥٩) وشرح القواعد الأربع للعتيبي (ص/ ١٨).

فالشفاعة المنفيَّة: ما كانت تطلب من غير الله (١) فيما لا يقدر عليه إلا الله. (٢)

والدَّلِيل (٣) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [سورة البقرة: ٢٥٤]. (٤)

والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله. (٥)

---

(١) أي: من المخلوق، كنبينا محمد ﷺ، أو الشيخ عبد القادر أو غيرهما.

(٢) في الأمور الأخروية، وأحسن من هذا كله أن يقال: هي التي لم تتوفر فيها شروط الشفاعة كما قدَّمنا.

قال شيخ الإسلام: "يُرَادُ بِذَلِكَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ الَّتِي يُثْبِتُهَا أَهْلُ الشِّرْكِ وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ: مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ لِلْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْقَدْرِ أَنْ يَشْفَعُوا عِنْدَهُ بِغَيْرِ إذْنِهِ كَمَا يَشْفَعُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عِنْدَ بَعْضٍ فَيَقْبَلُ الْمَشْفُوعُ إلَيْهِ شَفَاعَةَ شَافِعٍ لِحَاجَتِهِ إلَيْهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً وَكَمَا يُعَامِلُ الْمَخْلُوقُ الْمَخْلُوقَ بِالْمُعَاوَضَةِ." انظر مجموع الفتاوى (١/ ١٤٩-١٥٠).

(٣) على وجود شفاعة منفية.

(٤) قال السعدي: "وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخرا وأجرا موفرا في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، ". انظر تفسير السعدي (ص/ ١١٠).

(٥) أي: في الأمور الأخروية، لأنه هو مالكها، وأوضح بأن يقال: هي التي توفرت فيها شروط الشفاعة.

قال ابن القيم: "والشفاعة التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده، والتي نفاها الله هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.". انظر مدارج السالكين (١/ ٣٤٩).

والشَّافِع مُكرَمٌ بالشَّفَاعَة. (١)

والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن. (٢)

---

(١) يشير المصنف هنا إلى فائدة الشفاعة، وهي إكرام الشافع.

قال شيخ الإسلام: "وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ الشَّافِعِ الَّذِي أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِيُكْرِمَهُ بِذَلِكَ وَيَنَالَ بِهِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ والآخرون ﷺ ".

وقال أيضا: " فَهَذَا الصِّنْفُ الْمَأْذُونُ لَهُمْ الْمَرْضِيُّ قَوْلَهُمْ: هُمْ الَّذِينَ يَحْصُلُ لَهُمْ نَفْعُ الشَّفَاعَةِ.".

وقال العلامة السعدي: "فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن".

والخلاصة أنَّ مع ما في الشفاعة من نفع المشفوع له المقصود منها هو إكرام الشافع ويكون من وجهين:

الأول: إكرام الشافع بقبول شفاعته.

الثاني: ظهور جاهه وشرفه عند الله تعالى.

انظر مجموع الفتاوى (٧/ ٧٨) (١٤/ ٣٩٢) وتفسير السعدي (ص/ ١١٠) والقول المفيد لابن عثيمين (١/ ٣٤٤).

(٢) يشير المصنف إلى شروط الشفاعة، وقد تقدمت.

قال ابن القيم في المدارج (١/ ٣٤٩): "وَتَأَمَّلْ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي هُرَيْرَةَ - وَقَدْ سَأَلَهُ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ - قَالَ «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» كَيْفَ جَعَلَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا شَفَاعَتُهُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ، عَكْسَ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ تُنَالُ بِاتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَهُمْ شُفَعَاءَ، وَعِبَادَتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَقَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي زَعْمِهِمُ الْكَاذِبِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ الشَّفَاعَةِ هُوَ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ، فَحِينَئِذٍ يَأْذَنُ اللَّهُ لِلشَّافِعِ أَنْ يُشَفَّعَ.

وَمِنْ جَهْلِ الْمُشْرِكِ اعْتِقَادُهُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَهُ وَلِيًّا أَوْ شَفِيعًا أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُ، وَيَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا يَكُونُ خَوَاصُّ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُمْ مَنْ وَالَاهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَفِي الْفَصْلِ الثَّانِي ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَبَقِيَ فَصْلٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا التَّوْحِيدَ، وَاتِّبَاعَ الرَّسُولِ، وَعَنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ يَسْأَلُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ: مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟ . =

والدَّليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [سورة البقرة:٢٥٥]. (١)



= فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ، تَقْطَعُ شَجَرَةَ الشِّرْكِ مِنْ قَلْبِ مَنْ وَعَاهَا وَعَقَلَهَا لَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا يَأْذَنُ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ، وَلَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا تَوْحِيدَهُ، وَاتِّبَاعَ رَسُولِهِ."

(١) قال الشوكاني في الفتح القدير (١/ ٣١١): "قَوْلُهُ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ مِنَ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَنْفَعَ أَحَدًا مِنْهُمْ بِشَفَاعَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَالتَّقْرِيعُ وَالتَّوْبِيخُ لَهُ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مِنَ الدَّفْعِ فِي صُدُورِ عُبَّادِ الْقُبُورِ، وَالصَّدِّ فِي وُجُوهِهِمْ، وَالْفَتِّ فِي أَعْضَادِهِمْ، مَا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، وَلَا يَبْلُغُ مَدَاهُ."

[القَاعِدةُ الثَّالِثَةُ(١)
لا فَرقَ بَينَ المَخْلُوقَاتِ فِي عَدمِ استِحقَاقِ العِبَادَةِ

القاعدة الثالثة: (٢)

(١) ممن نصَّ على هذه القاعدة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام الشوكاني، والصنعاني، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وغيرهم.

قال شيخ الإسلام: "فَإِنَّ أَهْلَ الْمِلَلِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ جَمِيعَهُمْ نُهُوا عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَكَفَّرُوا مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ".
انظر مجموع الفتاوى (٢/ ١٢٨) والدّرر النضيد (ص/ ٨١) وشرح كشف الشبهات للشيخ محمد بن إبراهيم (ص/ ٦٤) وتطهير الاعتقاد (ص/ ٦٤).

(٢) معنى هذه القاعدة أنَّ الإسلام أنكر جميع المعبودات الباطلة، وكفَّر من عبدها، ولم يفرق بين من يعبد حجرا، أو شجرا، أو ملكا، أو شيطانا كما كانت تفعل ذلك الجاهلية، وبين من يعبد إنسانا من الأحياء، أو الأموات نبيا كان أو وليا كما يفعله الآن كثير من المسلمين، وذلك لأربعة أمور:

١) أنَّ الله جل وعلا في القرآن أنكر الجميع، وأمر بقتالهم، ولم يستثن منها أحدا.
٢) أنَّ النبي ﷺ لم يفرق بين عابد صنم وعابد ملك، أو رجل صالح.
٣) أن علَّة كفرهم واحدة، وهي عبادة غير الله، وكلها كفر كما تقدك.
٤) أن معنى الشِّرك كما تقدم: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، ومن عبد شيئا من هذه المعبودات فقد سوَّى بين الله وبين غيره أيا كان.

قال الإمام الشوكاني في: "فمن زعم أن ثمَّ فرقًا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر وينفع، وبين من اعتقد من ميت من بني آدم، أو حي منهم أنه يضر أو ينفع أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله فقد غلط غلطا بينا، وأقر على نفسه بجهل كبير؛ فإن الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به، أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه، أو التقرب إلى غيره بشيء ".
وقال الشيخ صالح آل الشيخ: "وهذه القاعدة يقينية من أنه لا فرق بين هذا وذاك، لأن المدار على عبودية القلب، فإذا قام في القلب التنديد والإشراك بالله جل وعلا فسواء أكان المشرك به صالحا أم طالحا، نبيا =

أنَّ النبي ﷺ ظهر على أناسٍ متفرِّقين [(١)] في عباداتهم. [(٢)]

= كان أم لم يكن نبيا، شجرا كان أم ملكا، الأمر واحد، لأن القلب يجب أن تكون عبوديته لله وحده، وأن يكون دينه لله وحده، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر:٣]. ".

ومراد المصنِّف من ذكر هذه القاعدة هو الرد على الصوفية القبوريين، الذين يدَّعون أن الشرك عبادة الأصنام فقط، وينكرون التسوية بين من يدعو صنما، وبين من يدعو وليا أو صالحا، وقولهم باطل، نشأ عن حب الشِّرك والنفاح عنه، أو الجهل بالتوحيد والشرك، وأهل التوحيد لا يقولون: إن النبي مثل الصنم، أو أن الصالح مثل هذا الطالح، وإنما يقولون: إن جميع المخلوقات لا فرق بينهم باعتبار صرف العبادة لهم، فالجميع لا يستحق العبادة، سواء كان صالحا أم طالحا، ملكا أو حجرا، ووجه الشبه بينهما أن العابدين قد وقعا في الشرك الذي لا يغفر، وإن كان الثاني أضل سبيلا كما قال المصنف في بعض كتبه.

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: "فلا فرق بين المعبودات، بل الكلُّ تسويةُ المخلوق بالخالق، والكل عدل به تعالى سواه في العبادة، فالكل شرك، والكل مشركون".

وقال الصنعاني: " فإن قلتَ: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين كالذين يعتقدون في الأصنام؟

قلتُ: نعم! قد حصل منهم ما حصل من أولئك وساووهم في ذلك، بل زادوا عليهم في الاعتقاد والانقياد والاستعباد، فلا فرق بينهم."

انظر الدّرر النضيد (ص/ ٨١) وشرح القواعد الأربع للشيخ صالح آل الشيخ (ص/ ٤٢) وشرح القواعد للفوزان (ص/ ٣٥٠) وشرح القواعد الأربع للجامي (ص/ ٦٩) ضمن شرح الرسائل، وشرح كشف الشبهات للشيخ محمد بن إبراهيم (ص/ ٦٤) وتطهير الاعتقاد (ص/ ٦٤)

(١) أي: لم تكن عباداتهم مختصة بمعبودات معيَّنة، بل كانوا يعبدون أشياء كثيرة.

(٢) قال شيخ الإسلام: "وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ أَصْلَ الشِّرْكِ فِي الْعَالَمِ كَانَ مِنْ عِبَادَةِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ وَعِبَادَةِ تَمَاثِيلِهِمْ وَهُمْ الْمَقْصُودُونَ. وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ إمَّا الشَّمْسُ وَإِمَّا الْقَمَرُ وَإِمَّا غَيْرُهُمَا، وَصَوَّرَتْ الْأَصْنَامُ طَلَاسِمَ لِتِلْكَ الْكَوَاكِبِ وَشِرْكُ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - كَانَ مِنْ هَذَا أَوْ كَانَ بَعْضُهُ مِنْ هَذَا وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْجِنِّ وُضِعَتْ الْأَصْنَامُ لِأَجْلِهِمْ وَإِلَّا فَنَفْسُ الْأَصْنَامِ الْجَمَادِيَّةِ لَمْ تُعْبَدْ لِذَاتِهَا بَلْ لِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ وَشِرْكُ الْعَرَبِ كَانَ أَعْظَمُهُ الْأَوَّلَ وَكَانَ فِيهِ مِنْ الْجَمِيعِ.". =

منهم من يعبد الشَّمس (١) والقَمَر. (٢) ومنهم من يعبد الملائكة. (٣)

= وقال أيضا: "عبَّاد الشمس والقمر والكواكب يعبدونها كما يعبد عباد الأصنام للأصنام، وكما يعبد عباد الأنبياء والصالحين لهم ولتماثيلهم، وكما يعبدون آخرون الملائكة، وآخرون يعبدون الجن لما يرجون بعبادتها من جلب منفعة أو دفع مضرة، لا لاعتقادهم أنها خلقت العالم بل قد يجعلونها شفعاء ووسائط بينهم وبين رب العالمين".

انظر مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٦٠-٤٦١) والرد على المنطقيين (ص/ ٣٠٦).

(١) قال ابن القيم: "فمنهم عباد الشمس، زعموا أنها ملك من الملائكة، لها نفس وعقل، وهي أصل نور القمر والكواكب، وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم، منها، من عندهم ملك الفلك، فيستحق التعظيم والسجود، والدعاء.

ومن شريعتهم في عبادتها: أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار. وله بيت خاص قد بنوه باسمه، وجعلوا له الوقوف الكثيرة، من القرى والضياع، وله سدنة وقوام وحجبة، يأتون البيت ويصلون فيه لها ثلاث كرات في اليوم. ويأتيه أصحاب العاهات، فيصومون لذلك الصنم ويصلون، ويدعون ويستسقون به، وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، وإذا غربت، وإذا توسطت الفلك، ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له. ولهذا نهى النبيّ ﷺ عن تحرى الصلاة في هذه الأوقات، قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا، وسدا لذريعة الشرك، وعبادة الأصنام.". انظر إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٣).

(٢) قال ابن القيم: "وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنما، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلى. ومن شريعة عباده: أنهم اتخذوا له صنما على شكل عجل يجره أربعة، وبيد الصنم جوهرة، ويعبدونه، ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر، ثم يأتون إليه بالطعام والشراب، والفرح والسرور، فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه.". انظر إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٤).

(٣) جمع ملك، مأخوذ من الألوكة وهي الرسالة، والملائكة عالم غيبي خلقهم الله من نور، ولهم أعمال مختلفة، ومراتب متعددة، يقول شيخ الإسلام كما في المجموع (١/ ١٥٧): "وَقَدْ يَعْتَقِدُونَ [أي المشركون] أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ إنَّمَا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ فَإِنَّ الْجِنَّ هُمْ الَّذِينَ يُعِينُونَهُمْ وَيَرْضَوْنَ بِشِرْكِهِمْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ . وَالْمَلَائِكَةُ لَا تُعِينُهُمْ عَلَى =

ومنهم من يعبد الأنبياء (١) والصالحين. (٢) ومنهم من يعبد الأصنام. (٣) ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار. (٤)

= الشِّرْكِ لَا فِي الْمَحْيَا وَلَا فِي الْمَمَاتِ وَلَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ قَدْ تُعِينُهُمْ وَتَتَصَوَّرُ لَهُمْ فِي صُوَرِ الْآدَمِيِّينَ فَيَرَوْنَهُمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَنَا إبْرَاهِيمُ أَنَا الْمَسِيحُ أَنَا مُحَمَّدٌ أَنَا الْخَضِرُ أَنَا أَبُو بَكْرٍ أَنَا عُمَرُ أَنَا عُثْمَانُ أَنَا عَلِيٌّ أَنَا الشَّيْخُ فُلَانٌ".

(١) جمع نبي، وهو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأرسل إلى قوم ليسوا مخالفين، بخلاف الرسل، ولكن مراده هنا الأنبياء والرسل، وفي حديث أبي سعيد المتفق عليه «فَيُدْعَى اليَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ فَقَالُوا: عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ أَلاَ تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ: مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ».

قال المصنف: "من اعتقد في مخلوق لجلب منفعة، أو دفع مضرة، فقد اتخذه إلها؛ فإذا كان الاعتقاد في الأنبياء هذا حاله، فما دونهم أولى ". انظر الدرر السنية (٢/ ١٢٦-١٢٧).

(٢) جمع صالح، وَهُوَ كُلُّ مَنْ صَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ وَعَلَانِيَتُهُ، سواء كان نبيًّا أو غيره.

قال ابن تيمية: "وَكَذَلِكَ لَفْظُ الصَّالِحِ وَالشَّهِيدِ وَالصِّدِّيقِ يُذْكَرُ مُفْرَدًا؛ فَيَتَنَاوَلُ النَّبِيِّينَ، قَدْ يُذْكَرُ الصَّالِحُ مَعَ غَيْرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾. قَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ: الصَّالِحُ: الْقَائِمُ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ."

انظر تفسير ابن جرير الطبري (٧/ ٢١١) ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٧).

(٣) قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع في حاشيته على كشف الشبهات (ص/ ٢٢): "معنى عبادة الأصنام اتَّخاذها وسائط بأن يتقرب إليها عابدها بما يزعم أن يقربه إلى الله كالذبح لها، والنذر ودعائها، كما يفعله المشركون عبّاد الأموات."

وقال الإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٤): "فوضع الصنم إنما كان الأصل على شلك معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته، ليكون نائبا، وقائما مقامه. وإلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده، ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده.".

(٤) المراد بالأحجار الأصنام، ولذلك سقط من بعض النسخ لفظ (الأصنام).

وقاتلهم رَسول الله ﷺ جميعا، (١)

ولم يفرق بينهم. (٢)

والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩﴾ [سورة الأنفال: ٣٩]. (٣)

فدليل الشمس والقمر (٤) قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [سورة فصلت: ٣٧]. (٥)

---

(١) قال المصنف: " فلم يفرق بين الكل، بل قاتلهم جميعا، ولا فرق بينهم، إلى أن كان الدين كله لله". انظر الدرر السنية (٢/ ٣٤-٣٥).

(٢) وذلك لأن أصل الجهاد ليكون الدين كله لله، بحيث تكون عبادته وحده هو الدين الظاهر، وتكون عبادة ما سواه مقهورًا مكتومًا أو باطلاً معدومًا، قد تقدَّم أن هذا كان بأمر من الله سبحانه وتعالى. انظر الرد على الأخنائي (ص/ ٤٧٦).

(٣) قال الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٨): "يَقُولُ تَعَالَى: فَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ شِرْكٌ وَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَيَرْتَفِعَ الْبَلَاءُ عَنْ عِبَادِ اللَّهِ مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ الْفِتْنَةُ {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَقُولُ: حَتَّى تَكُونَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ خَالِصَةً دُونَ غَيْرِهِ".

(٤) أي: وجود من يعبد الشمس والقمر، ومنهم قوم سبأ، يقول الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [سورة النمل: ٢٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ».

(٥) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٦٦): "يَقُولُ تَعَالَى مُنَبِّهًا خَلْقَهُ عَلَى قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَأَنَّهُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَأَنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَيْ أَنَّهُ خَلَقَ اللَّيْلَ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارَ بضيائه =

وَدليل الملائكة قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة سبأ: ٤٠-٤١]. (١)

= وهما متعاقبان لا يفترقان، وَالشَّمْسَ وَنُورَهَا وَإِشْرَاقَهَا وَالْقَمَرَ وَضِيَاءَهُ وَتَقْدِيرَ مَنَازِلِهِ فِي فَلَكِهِ وَاخْتِلَافَ سَيْرِهِ فِي سَمَائِهِ لِيُعْرَفَ بِاخْتِلَافِ سَيْرِهِ وَسَيْرِ الشَّمْسِ مَقَادِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْجُمَعُ وَالشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ، وَيَتَبَيَّنُ بِذَلِكَ حُلُولُ الْحُقُوقِ وَأَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَحْسَنَ الْأَجْرَامِ الْمُشَاهَدَةِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ عَبْدَانِ مِنْ عَبِيدِهِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَتَسْخِيرِهِ فَقَالَ: لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ أَيْ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ فَمَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَتُكُمْ لَهُ مَعَ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْرِهِ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به". وانظر مجموع الفتاوى (١٤٦/٢٣).

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٦٣): "يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَقْرَعُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رؤوس الْخَلَائِقِ، فَيَسْأَلُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَزْعُمُونَ أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، فَيَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلَاءِ بعبادتكم، كما قال تعالى فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الْفُرْقَانِ: ١٧] وَكَمَا يَقُولُ لعيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [الْمَائِدَةِ: ١١٦] وَهَكَذَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿سُبْحانَكَ﴾ أَيْ: تَعَالَيْتَ وَتَقَدَّسْتَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ.

﴿أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أَيْ: نَحْنُ عَبِيدُكَ وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ، ﴿بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يَعْنُونَ الشياطين، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ."

قال السمعاني في تفسيره (٤/ ٣٣٨): "فَإِن قيل: كَيفَ يَصح قَوْله: ﴿بل كَانُوا يعْبدُونَ الْجِنّ﴾ وهم عبدُوا الْمَلَائِكَة؟ وَالْجَوَاب من وَجْهَيْن:

أَحدهمَا: أَنه قَالَ: ﴿بل كَانُوا يعْبدُونَ الْجِنّ﴾ لِأَن الْجِنّ هم الَّذين زينُوا لَهُم عبَادَة الْمَلَائِكَة، (وَالْمرَاد من الْجِنّ الشَّيَاطِين.

وَالْقَوْل الثَّانِي: أَنهم صوروا صور الْجِنّ، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَة فاعبدوهم."

ودليل الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [سورة المائدة:١١٦]. (١)

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾ [سورة آل عمران:٨٠]. (٢)

---

(١) قال السعدي في تفسيره (ص/ ٢٤٩): "وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى. فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك.

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون {إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} فأنت أعلم بما صدر مني و ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة."

(٢) قال الطبري في تفسيره (٥/ ٥٣٥): "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا، يَعْنِي بِذَلِكَ آلِهَةً يُعْبَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ جَلَّ ثناؤُهُ نَافِيًا عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ عِبَادَهُ بِذَلِكَ: أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ أَيُّهَا النَّاسُ نَبِيُّكُمْ بِجُحُودِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، يَعْنِي بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ لَهُ مُنْقَادُونَ بِالطَّاعَةِ مُتَذَلِّلُونَ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ، أَيْ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ كَائِنٍ مِنْهُ أَبَدًا".

ودليل الصالحين قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الإسراء:٥٦-٥٧]. (١)

ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النجم:١٩-٢٠]. (٢)

---

(١) قال السعدي في تفسيره (ص/ ٤٦٠): "ثم أخبر أيضا أن الذين يعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب."

قال ابن القيم رحمه الله: "أي: هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هو عبيدي كما أنتم عبيدي، يرجون رحمتي ويخافون عذابي كما ترجون أنتم رحمتي وتخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني ؟ ".

وورد في الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء: ٥٧] قَالَ: «كَانَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أَسْلَمُوا، وَكَانُوا يُعْبَدُونَ، فَبَقِيَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ عَلَى عِبَادَتِهِمْ، وَقَدْ أَسْلَمَ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ».

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٩٧): " أَيِ: اسْتَمَرَّ الْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ عَلَى عِبَادَةِ الْجِنِّ وَالْجِنُّ لَا يَرْضَوْنَ بِذَلِكَ لِكَوْنِهِمْ أَسْلَمُوا وَهُمُ الَّذِينَ صَارُوا يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ".

انظر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٣) وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص/ ٢٦٥).

(٢) قال الطبري: " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَفَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ اللَّاتَ، وَهِيَ مِنَ اللَّهِ أُلْحِقَتْ فِيهِ التَّاءُ فَأُنِّثَتْ، كَمَا قِيلَ عَمْرٌو لِلذَّكَرِ، وَلِلْأُنْثَى عَمْرَةُ؛ وَكَمَا قِيلَ لِلذَّكَرِ عَبَّاسٌ، ثُمَّ قِيلَ لِلْأُنْثَى عَبَّاسَةُ، فَكَذَلِكَ سَمَّى الْمُشْرِكُونَ أَوْثَانَهُمْ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، فَقَالُوا مِنَ اللَّهِ اللَّاتَ، وَمِنَ الْعَزِيزِ الْعُزَّى؛ وَزَعَمُوا أَنَّهُنَّ بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ وَافْتَرَوْا، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُمْ: أَفَرَأَيْتُمْ أَيُّهَا الزَّاعِمُونَ أَنَّ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ بَنَاتُ اللَّهِ {أَلَكُمُ الذَّكَرُ}يقُولُ: أَتَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِكُمُ الذَّكَرَ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَتَكْرَهُونَ لَهَا الْأُنْثَى، وَتَجْعَلُونَ لَهُ الْأُنْثَى الَّتِي لَا تَرْضَوْنَهَا لِأَنْفُسِكُمْ، وَلَكِنَّكُمْ تَقْتُلُونَهَا كَرَاهَةً مِنْكُمْ =

وحديث أبي واقد اللَّيثيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [(١)] قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، [(٢)] وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، ويَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ [(٣)] يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ. [(٤)]

= لَهُنَّ".

وقال القرطبي: "وَفِي الْآيَةِ حَذْفٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ، أَيْ أَفَرَأَيْتُمْ هَذِهِ الْآلِهَةَ هَلْ نَفَعَتْ أَوْ ضَرَّتْ حَتَّى تَكُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ". تفسير الطبري (٢٢/ ٤٦) وتفسير القرطبي (١٧/ ١٠٢).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨) والترمذي (٢١٨٠) وأبن أبي شيبة (١٥/ ١٠١) وابن جرير (٩/ ٤٥) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤) وغيرهم من طريق الزهري عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد به، والراوي عن أبي واقد وثقه الحافظ في الفتح عند حديث (٥٧٧٥)، وغيره فعلى هذا فظاهر إسناده الصحَّة، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

(٢) أي: قريب عهدنا بالكفر، ففيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة. انظر فتح المجيد (ص/ ١٣٧).

(٣) هذان الفعلان وهو العكوف ونوط الأسلحة نوط الأشياء لتنتقل البركة من الشجر إلى الأسلحة فينتفعون بذلك في الدنيا والآخرة جميعا هذان نوعان من العبادة:

- فالعكوف والاعتكاف عبادة مستقلة.
- وطلب البركة والانتفاع في الدنيا والآخرة أيضا عبادة أخرى.

فهؤلاء طلبوا إلها مع الله جل وعلا حيث قالوا للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط". انظر شرح الكشف للشيخ صالح آل الشيخ (ص/ ٣٥٩).

(٤) الأنواط جمع نوط، مصدر سمي به المنوط، أي: المعلق عليه، وهي شجرة كان أهل الجاهليَّة يتبركون بها، ويعلقون عليها سلاحهم، لتكون بزعمهم أفظع ومضى عند لقاء العدو.

قال أبو بكر الطرطوشي: "فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمون من شأنها ويرجون البرء والشفاء من قبلها وينوطون بها المسامير والخرق؛ فهي ذات أنواط؛ فاقطعوها." انظر تعليقات الفقهي على كشف الشبهات (ص/ ٢٤) والحوادث والبدع (ص/ ٣٨-٣٩).

قَالَ: فَمَرَرْنَا بِالسِّدْرَةِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ [سورة الأعراف:١٣٨]» الحديث.[١]



(١) في آخر الحديث: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

قال ابن القيم: "فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى، مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها. فما الظن بالعكوف حول القبر، والدعاء به ودعائه، والدعاء عنده؟ فأيُّ نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر؟ لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون."

ثم قال: " فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر، وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله تعالى، فإن النذر عبادة وقربة، يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، ويتمسحون بذلك النصب، ويستلمونه.".

انظر إغاثة اللهفان (١/ ٢٠٥) (١/ ٢١٢).



القَاعِدة الرَّابِعَة:(٢)

---

(١) ممن نص على هذه القَاعدة الطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام ابن القيم، والمصنف في مواضع كثيرة من كتبه، والشيخ سليمان بن عبد الله، والشيخ عبد الرحمن بن حسن، ولحافظ الحكمي، والشنقيطي، وابن باز، والآلوسي، والعلامة محمد سلطان المعصومي، وغيرهم من أهل العلم.

قال شيخ الإسلام: "فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُوَحِّدُهُ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُوَحِّدُهُ فِي الشِّدَّةِ وَالْبَلَاءِ دُونَ النِّعْمَةِ وَالرَّخَاءِ بَيَانُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾."

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: "وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برًّا وبحرًا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهجيراه إن قام وإن قعد وإن عثر."

وقال الحافظ الحكمي: "وَهَذَا بِخِلَافِ مُشْرِكِي زَمَانِنَا الْيَوْمَ مِنْ عُبَّادِ الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا فَإِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي الشِّدَّةِ أَضْعَافَ شِرْكِهِمْ فِي الرَّخَاءِ حَتَّى إِنْ كَانُوا يُنْذِرُونَ لِهَذَا الْوَلِيِّ فِي الرَّخَاءِ بِبَعِيرٍ أَوْ تَبِيعٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ دِينَارٍ أَوْ دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَأَصَابَتْهُمُ الشِّدَّةُ زَادُوا ضِعْفَ ذَلِكَ فَجَعَلُوا لَهُ بَعِيرَيْنِ أَوْ تَبِيعَيْنِ أَوْ شَاتَيْنِ أَوْ دِينَارَيْنِ أَوْ دِرْهَمَيْنِ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ."

انظر تفسير الطبري (١٤/ ٦٦٨) ومجموع الفتاوى (٨/ ٥٠) (١٥/ ١٣) والفوائد لابن القيم (ص/ ٥٣) وأضواء البيان (٣/ ١٧٤) وتيسير العزيز الحميد (ص/ ١٨٠) وفتح المجيد (ص/ ٣٨) ومعارج القبول للحكمي (٢/ ٤٨٥) ومجموع فتاوى ابن باز (١/ ٢٦-٢٧) وجهود علماء الحنفية (٢/ ١١٨٢-١١٨٦).

(٢) معنى هذه القاعدة أن الشرك بعضه أغلظ من بعض، وبعضه أقبح من بعض، والكفر أيضاً يتفاوت، فالملاحدة الجاحدون أغلظ كفراً من المقرين بربوبيته سبحانه وتعالى وإن كانوا مشركين، والذي يدعو إلى الكفر ويصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى أغلظ كفراً من الذي لا يدعو وكفره قاصر على نفسه. =

وشِركُ المتأخِّرين أَغلَظُ مِن شِركِ المتَقدِّمين وذلك من وجوه:

١) أنَّ الأوَّلين يشركون في الرَّخاء فقط، والمتأخرون يشركون في الرَّخاء والشدَّة.

٢) أنَّ الأوَّلين كانوا يعبدون أناسا صالحين، أو أحجار ليس لها ذنب، والمتأخرون يعبدون أناسا فسقاء فجارا كالبدوي وغيره. وهذان ذكرهما المصنِّف

٣) أنَّ الأولين كانوا يعبدون الأموات فقط، والمتأخرين ربما يعبدون الولي بزعمهم وهو حيّ.

٤) أنَّ الأوَّلين كانوا يقصدون التقرّب إلى الله، وأما المتأخرون فكثير منهم يعبد لأجل الدنيا.

٥) أنَّ الأوَّلين كانوا يقرون لله بأصل توحيد الربوبيَّة، والمتأخرون يشركون في الربوبيَّة وغيرها.

٦) أنَّ الأولين ما كانوا يسندون تصرَّف الكون إلى غير الله، وأمَّا المتأخرون فيجاهرون بذلك، وهذا قد يدخل في السابق.

٧) أنَّ الأوَّلين كانوا يفهمون معنى (لا إله إلا الله) فلذلك لا يقولونها، والمتأخرون يقولونها بدون فهم معناها.

٨) أنَّ الأوَّلين كانوا يتحاشون عن التناقض والتلبيس، بخلاف المتأخرين، فإنهم يقولونها ويفعلون نقيض مقتضاها، تناقضا وتلبيسا على المساكين.

٩) أنَّ الأوَّلين كانوا مقرِّين أنَّهم يعبدون غير الله، لأغراض يذكرونها، بخلاف المتأخرين.

١٠) أنَّ المتأخرين يفضلون الأضرحة والقبور على المساجد بل على الحج.

١١) أنَّ المتأخرين يرون أنَّ الاستغاثة بالولي أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله.

١٢) أنَّ المتأخرين يخافون من الصالحين والأولياء أشد من خوف الله.

ذكر جلّ هذه الفروق في مواضع متعدّدة الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد، وبعضها ذكرها الشيخ عبد الرحمن بن حسن في الفتح المجيد وقرة عيون الموحدين، وبعضها من زياداتي، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تنبيه مهمّ

قول أئمة الدَّعوة: (شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين) لا يريدون أن جميع المتأخرين الذين أشركوا مع الله أنهم كفار، لأن بعضهم جهال، لا يجوز تكفيرهم، وإنما يريدون أنهم فِي زَاوية شركهم أشد من المتقدمين شركا، للوجوه التي ذكرنا، ولذلك لم يقولوا فيما أعلم: إنهم أكفر من المتقدمين، فلا بدَّ أن يفرَّق بين العبارتين، وذلك لأن المتقدّمين أشدّ كفرا بكثير.

قال العلامة الجامي: "هل هذه الزاوية نعممها ونطبقها على جميع أعمالهم، وهم أسوأ حالا من المشركين الأوَّلين في كلِّ شيء؟

أَنَّ مشركي زماننا [١] أغلظ شِركًا من الأَوَّلين،[٢] لأن الأَوَّلين يشركون في الرَّخاء[٣] ويخلِصُون لله في الشِّدة،[٤]

= هذا غير وارد، وغير مراد للشيخ، وذلك أنَّ المشركين الأَوَّلين أنكروا رسالة محمد ﷺ وآذوه، وهؤلاء يؤمنون برسول الله ﷺ وبرسالته، ويؤمنون بالجملة بما جاء به رسول الله ﷺ على جهل وتخبط كما تعلمون، ويؤمنون بالجملة بالقرآن، ... ويؤمنون بالبعث، وما يجري بعد ذلك من الجزاء والعذاب، ويؤمنون بالجنة والنَّار، هذه فروض ثابتة يخالفون بها المشركين الأَوَّلين، ... لو وعظت هؤلاء بالكتاب والسنَّة وذكَّرتهم بالله واليوم الآخر، لوجدت لديهم تأثرا، أمثال هؤلاء في قلوبهم شيء من الإيمان، ولم توصف بالخراب الكلِّي".

وقال أيضا: "لذلك لا يقال: إن المشركين اليوم أسوأ حالا من المشركين الأَوَّلين، ولكن الذي يجب أن يقال لأنه الواقع: إن كثيرا من المنتسبين إلى الإسلام اليوم قد يقفون في بعض المواقف أسوأ مما فعله المشركون الأَوَّلون، هذه النقطة التي أشرنا إليها."

انظر شرح القواعد الأربع للجامي (ص/ ٩٧) وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز للجامي الشريط السابع، الدقيقة الرابعة، وشرح القواعد للبراك (ص/ ٢٤).

(١) قال العلامة الجامي: "ولا تستنكر هذه العبارة كما أنكر أولئك، نحن نطلق عليهم أنهم مشركون، مع إثبات الفروق بين شركهم وشرك الأولين، ولا يجوز التوقف أن نطلق عليهم مشركون، وإنما البحث يأتي بعد ذلك، هل يعذر بجهله، يقال: عمله شرك، وظاهره شرك، لكن لا يخرج من الملَّة؟ هذا محلّ المبحث لطلاب العلم وأهل العلم، وأما إطلاق أنه مشرك فواجب، ولا يجوز الشك بذلك".

انظر دروسه في شرحه على قرة عيون الموحدين شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ومسألة العذر بالجهل فيها تفصيل ذكرناها في حاشية كشف الشبهات (٨٦-٩٣).

(٢) أي: أشد وأجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم. انظر فتح المجيد (ص/ ٣٨).

(٣) أي: في حال السعة والطمأنينة والسراء والنعمة. انظر شرح القواعد الأربع للبراك (ص/ ٢٤).

(٤) أي: الضر والمصيبة والألم الشديد، وذلك لأنَّ التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه فَأَما أعداؤه فينجيهم من كرب الدُّنْيَا وشدائدها ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هم يشركُونَ﴾ وَأما أولياؤه فينجيهم بِهِ من كربات الدُّنْيَا وَالْآخِرَة وشدائدها، ... فَمَا دفعت شَدَائِد الدُّنْيَا بِمثل التَّوْحِيد. قاله ابن القيم في الفوائد (ص/ ٥٣).

ومشركو زماننا شِركهم دائم في الرَّخاء والشِّدة. [(١)]

والدليل [(٢)] قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة العنكبوت:٦٥]. [(٣)]

فعلى هذا [(٤)] الدَّاعي عابد، [(٥)] والدَّلِيلُ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ ...

---

(١) قال العلامة الشنقيطي: "إِنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْكُفَّارَ وَعَاتَبَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِي وَقْتِ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ خَاصَّةً يُخْلِصُونَ الْعِبَادَةَ لَهُ وَحْدَهُ، وَلَا يَصْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ حَقِّهِ لِمَخْلُوقٍ، وَفِي وَقْتِ الْأَمْنِ وَالْعَافِيَةِ يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ فِي حُقُوقِهِ الْوَاجِبَةِ لَهُ وَحْدَهُ، الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ جَهَلَةِ الْمُتَسَمِّينَ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا دَهَمَتْهُمُ الشَّدَائِدُ، وَغَشِيَتْهُمُ الْأَهْوَالُ وَالْكُرُوبُ الْتَجَئُوا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ مِمَّنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِ الصَّلَاحَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُخْلِصُ فِيهِ الْكُفَّارُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا أَوْضَحَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ إِجَابَةَ الْمُضْطَرِّ وَإِنْجَاءَهُ مِنَ الْكَرْبِ مِنْ حُقُوقِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ." انظر أضواء البيان (٣/ ١٧٤).

(٢) على أنهم الكفار يخلصون لله في الشدَّة.

(٣) قال الطبري في تفسيره (١٨/ ٤٤٠): "يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَإِذَا رَكِبَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ السَّفِينَةَ فِي الْبَحْرِ، فَخَافُوا الْغَرَقَ وَالْهَلَاكَ فِيهِ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يَقُولُ: أَخْلَصُوا لِلَّهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِمُ التَّوْحِيدَ، وَأَفْرَدُوا لَهُ الطَّاعَةَ، وَأَذْعَنُوا لَهُ بِالْعُبُودَةِ، وَلَمْ يَسْتَغِيثُوا بِآلِهَتِهِمْ وَأَنْدَادِهِمْ، وَلَكِنْ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ} يَقُولُ: فَلَمَّا خَلَّصَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ وَسَلَّمَهُمْ، فَصَارُوا إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِمْ، وَيَدْعُونَ الْآلِهَةَ وَالْأَوْثَانَ مَعَهُ أَرْبَابًا.".

(٤) أي: أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الرَّخَاءِ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الشَّدَائِدُ دَعَوْا اللَّهَ وَحْدَهُ وَتَرَكُوهَا. انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥/ ١٣).

(٥) أي: أنَّ الدَّعاء عبادة، فيكون الداعي عابدا، ودليل كونها عبادة أن الله أمر بها، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة غافر: ٦٠]. =

...[سورة الأحقاف:٥-٦]. (١)

تمت (٢) والله سبحانه أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

= ونصَّ النبي ﷺ على أنها عبادة، للحديث المتقدِّم ذكره، مع الأشياء التي تعرف بالعبادة.

قال الشوكاني: " فاعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة المطلوبة من العباد، ولو لم يكن في الكتاب العزيز إلا مجرد طلبه منهم لكان ذلك مفيدا للمطلوب، أعني كونه من العبادة قال الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} وقال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، وقال تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ فهذه الآيات البينات دلت على أن الدعاء مطلوب لله عز وجل من عباده، ثم توعد على عدم الدعاء فقال عز من قائل: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} وهذا القدر يكفي في إثبات كونه عبادة، فكيف إذا انضم إلى ذلك النهي عن دعاء غير الله سبحانه، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾" انظر: الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني (١/ ١٧١).

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ٢٥٣): "وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناما، ويطلب مَا لَا تَسْتَطِيعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهِيَ غَافِلَةٌ عَمَّا يَقُولُ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَبْطِشُ، لِأَنَّهَا جَمَادٌ حِجَارَةٌ صُمٌّ.

وَقَوْلُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٨١- ٨٢] أَيْ: سَيَخُونُونَهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِمْ. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ".

(٢) ساقطة من بعض النسخ.

وكان الفراغ من كتابة هذه الحاشية (١٢/ جمادى الثاني/ ١٤٣٩هـ) ثم تم تهذيبها وتنقيحها (١٩/ رجب/ ١٤٤٠هـ) بـقلم أبي مشكور الصومالي الإسرافيلي والحمد لله رب العالمين.

  

فَهرسُ المُحتَويَات

